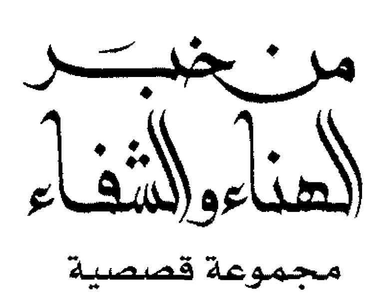

من خبز
الهناء والشقاء
سلوى بكر
قصص قصيرة
ومسرحية
دار العين للنشر




من خبز
الهناء والشفاء
مجموعة قصصية

من خبر الهناء والشفاء

سلوى بكر

الطبعة الأولى ، ٢٠٠٧



دار العين للنشر
٩٧ كورنيش النيل ، روض الفرج ، القاهرة
تليفون: ٤٥٨٠٣٦٠ ، فاكس: ٤٥٨٠٩٥٥
E.mail: elainco2002@yahoo.com

الغلاف للفنان / يوسف عبد لكي

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٠٧/١٦٣٢

من خبر الهناء والشفاء

مجموعة قصصية

سلوى بكر

دار العين للنشر



فرامل خفيفة

صـــرّف أموره و توكل على الله منطلقا بالسيارة في اتجاه البلد، كان الشيء الوحيد الذي مازال يؤرقه و لا يجد له حـــلاً هو صوت "الكلاكس" الذي لا يليق بمثل هذه المناسبة السـعيدة، فهـــو مفزع، جاف ، منذر، و الجميع يعرف معناه بمجـــرد أن يسمع طاطي ... طاطي ... طاطي ... طوووو ...، بينما في حالة اليوم، كان يجب أن يكون إيقاع "الكلاكس" فـــرحاً، راقصـــاً، دافعـــاً النسوة إلى الزغاريد، و العيال إلى التطبيل و التصفيق عندما يتناهى إلى آذانهم .. تتيت .. تيت .. تتيت .. تيت تيت .. تيتيتي.

تـــنهد و قال لروحه: على أية حال ليس في الإمكان أبدع ممـــا كـــان، و لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، و الحمد لله أن السـيارة لـــم تكن مطلوبة وقت أن خرج بها من المستشفى، وأن عـــبد المقصـــود رئـــيس الحـــركة و النقل كان متفهماً

وعطوفـــاً و وافـــق عندما صارحه بالأمر و قال له بكل أدب وذوق:

- و ماله يا اسماعيل، أخوك و لازم تشرّفه يوم فرحته، ســـأقيدها فـــي الدفـــتر: عطل في الفرامل يستوجب الإصلاح الفوري. و لكن "الأتومبيل" لزاماً يكون في المستشفى قبل الساعة ثمانية. أنت عارف أن مناوبتي تنتهي الساعة ثمانية و لازم أسلم الدفتر و السيارة. و يا سيدي ربنا يتمم بخير.

فكـــر فـــي عـــبد المقصود، كم هو طيب و إنسان، لم تتلوث روحه بكل مفاسد هذه المدينة الكبيرة، و يفعل الخير إذا أمكنه ذلـــك دون قـــيد أو شـــرط. ردد لنفسه بصوت مسموع وهو يتفادى الاصطدام بسيارة فارهة يقودها شاب صغير يسير بها و كأن لا أحد في الطريق غيره:

– الدنيا مازالت بخير، و فيها أولاد حلال ياما.

ما أن وصل إلى قهوة المعلم بعزق، الواقعة في آخر الترب، بالقرب من تربة الخديوي الفخمة التي تصلح لأن تكون قصراً

و ليس مقبرة، حتى نزل من السيارة، و جلس ليدخن نرجيلة و يشرب كوباً من الشاي؛ و بعد أن رشف عدة رشفات من الشاي الكشري المعمول على ماء أبيض لم يتم غليه مع الحبيبات الهندية الداكنة، و سحب عدة أنفاس عبقت رئتيه بدخان المعسل الذي يدمنه، نادى من مجلسه على الولد بلية، صبي الأسطى عبد الحميد الميكانيكي و قال له:

- العربية عمّالة تقطع، شوف "الكاربراتير"، و لما تخلص اغسل العربية من جوه و من بره، و بعدها رح لأم محمود و هات منها بجنيه صحبة ورد.

رد بلية بسرعة:

- و تدفع جنيه؟! طيب الأحسن أني أدخل و ألم لك حبّة ورد من على الترب. امبارح كانت طلعة رجب والورد ياما على القبور.

أُخِذَ بكلمات بلية و تطيّر بعض الشيء ثم قال:

- لا .. إسمع الكلام و رح بعدما تنهي الغسيل لأم محمود و قل لها تتوصى و تنقيه أحمر، لأني عاوزه لفرح.

عاود المسير مرة أخرى بعد أن اطمأن على كل شيء بالسيارة، و بعد أن انتهى بلية من أداء المهام الموكلة إليه. وتحاشى العبور على نقاط المرور الرئيسية بالمدينة حتى لا يثير الشبهات، و حرص على ألا يستخدم "الكلاكس" حتى لا يلفت إليه أنظار الضباط المنتشرين هنا و هناك لضبط حركة السير، لكن عند آخر الإشارات الضوئية في شارع الهرم لم يتمالك نفسه، و ضغط دون أن يشعر بإصبعه على آلة التنبيه و قد وجد أمامه سيارة تتراجع ببطء محاولة الوصول إلى المنعطف الذي تجاوزته، و لم ينتبه إلى الصوت الذي انطلق بخشونة: طاطي .. طاطي، لكنه انتبه إلى صوت ضابط المرور الذي كان يصيح بصوت عال في الميكروفون النقال الذي يحمله:

- وسّع الطريق .. وسّع الطريق. سيارة إسعاف.

داخله الزهو، و الكلمات ترنّ في أذنيه مرتين، مرة لأنه خدع ثلاثــة نجـوم و نســر بكل جلال قدره، و الثانية لأن خطته مازالــت تــتحقق بنجاح و وفقاً لما هو مرسوم لها حتى ذلك الحين، و هو الآن، قاب قوسين أو أدنى من بلدته الريفية التي تــزحف عليها بخطى حثيثة هذه المدينة الغول، التي ابتلعت عشــرات القــرى و البلدات الصغيرة التي كانت تعيش على أطــرافها ذات يوم، و هو يوقن أن الدور لابد أن يأتي على بلدتــه الهادئة، فالمدينة لا تشبع و لا ترتوي من عبّ خضار الأرض و تحويله إلى أسمنت و طوب و آلاف من العاطلين عــن العمــل الذيــن كانوا يوماً ما فلاحين يتقوتون على ما تزرعه أيديهم من طين الأرض السوداء.

عــندما اقترب من البلدة، لم يتمالك نفسه، و قد اكتسحت أنفاســه روائــح أشــجار الكــافور المتناثرة على الطريق، وبســاتين الفاكهة و غيط الفل الشهير التابع لشركة العطور، إنتشـــى وشــعر بروحه خفيفة لطيفة مما دفعه لأن يرفع يديه

قلـــيلاً عـــن عجلة القيادة ليصفق مراراً و يغني أغنية ريفية قديمة كانت قد شاعت حيناً:

- تاكسي ملاكي و لا أحط رجلي ..

تاكسي ملاكي يا عريسي و ...

لمـــح عند مدخل البلدة خاله أبا حسين عائداً من الغيط، يسير إلى جانب حماره المحمل بجوال ضخم تطفح من فتحته أكواز الذرة الخضراء المنزوعة لتوها من عيدانها بالحقل، فهدّأ من ســـرعته و نادى عليه أن يركب معه، و يترك البهيمة تعود للدار لوحدها مثلما تعوّدت، لكن خاله رفض بشدة في البداية خشية أن يسرق أحدهم أكواز الذرة، و اقتنع في النهاية عندما قال له اسماعيل:

- مـــا أنـــا و ايـــاك وراءها بالأتوموبيل واحدة واحدة، إركـــب أحســـن الشمس حامية، حتى لا تكون بعافية وقت الزفة.

و ما أن استقر خاله إلى جانبه في السيارة، و عرف أن الزفة ســتكون بهــذه البيضاء الكبيرة حتى راح يهنئه و يثني عليه وعلى فكرته الرائعة و هو يقول:

- و الله خــير ما عملت، لأن الأوتومبيل كبير و يسع أنفار ياما .. اسم الله عليك و على نباهتك.

رد اسماعيل على خاله موضحاً:

- طيب، دبرني يا خال، الولد قدم لنا كل ما يقدر عليه، تسع سنين في الغربة و هو يغرف الفلوس و يحطها فــي يــدي و يد أمه، و عمل لها منها عملية المرارة وهــد البيــت النيء، و بناه بالمسلح و الطوب الأحمر ولــم أخواته البنات فيه، ثم أنه شارك في جهاز كل واحــدة عــند الجــواز، ويـاما جاب لنا من الهدوم وحاجات كثيرة.

قاطعه الخال:

- أي و الله جــاب لــي مقطع صوف أول عام أول ، وقبلها شال كشمير هندي.

واصل اسماعيل و كأنه يُسَمع جزءاً من محفوظات مدرسية:

- ثم أنه مسكين كان غير راغب في المرواح و السفر لكنـــي قلــت له، و مالهم الميتين؟. يا أخي لكل أجل كــتاب، مغسّل مغسّل. طيب. فيها ناس تغسل الميتين مــن بـــاب فعل الخير و نيل الثواب، و أنت يا هاشم رزقك وصل برجليه لحد عندك، و الموضوع كله تم بالصـــدفة، لأن الدكــتور المديــر طلب مني أوَصل ضـــيفه الســـعودي بالمرســـيدس الخاصة به للفندق، والـــرجل أخذ و أعطى معي في الكلام و سألني ان كنت أعرف أي شخص يشتغل في التغسيل عنده في المستشفى بالسعودية و يكون في المشرحة، و أنا قلت لـــه، أي نعم، عندي أخي و هو شاب: ديّن و أخلاق ويعرف ربنا. ثم إني قلت له:
- الســـعودية أحســـن لك يا هاشم، و أفضل من وقفتك بفاترينة سندوتشات الكبدة و المخ في الشوارع، و كل يـــوم و الثاني، يطلّع جماعة الصحة و البلدية روحك

بالرشـــاوي أو الجرجرة إلى أقسام البوليس في سين وجـــيم، و يوم شغل و عشرة لا، و الجدع ربنا هداه، وسافر و ربنا فتحها عليه.

- آه. ربنا يتمم له بخير، و تمر ليلته بسلام.

رد الخال و قد بدا متململاً من سماع قصة يبدو أنه قد سمعها كثيراً، فحاول تغيير الموضوع و سأل:

- سمعت أذان الظهر؟.

رد اســماعيل بســرعة: لا، ثـم واصـــل كلامه و كأن من المســتحيل أن يوجد خلال ذلك الوقت ما يمنعه من مواصلة كلامه:

- ثـــم إنـــي قلت أفرحه و أرد له الجميل، و فكرت في تاكسي أجرة، و لكن الأجرة مستحيل أن تسعنا كلنا: أنـــا و أمي و أخواتي و عيالهم، و أنت يا خال و أم حسين والعيال. طيب و حتى لو أخذتنا السيارة كلنا، بقى خالي نعيم و عياله .. هل من المعقول أني أتركه يروح بلد العروسة لوحده؟.

وقف في النهاية أمام البيت، و راح يثبت الورد الذي أحضره بلية بسلك على جانبي السيارة و مقدمتها، و لم تمر ساعة إلا وكانـــت السيارة قد رصت رصاً بالذاهبين إلى بلدة العروس القريـــبة لحضــــور العرس و حفل الزفاف، أما من لم تسعهم العـــربة من الشباب و صغار السن، فقد تشبثوا بأبوابها و قد وقفـــوا على سلم السيارة الخلفي، لكن كل ذلك الزحام لم يمنع النسوة من الزغاريد، و الصبايا من الغناء و الأطفال القابعين على حجور أمهاتهم من التحرك فيما يشبه الرقص و التصفيق كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، و كانت حمى الفرح تتصاعد، كلمـــا عبرت السيارة قرية من القرى و يرفع البعض أيديهم ملوحيـــن للســـيارة أو للعـــريس الجالس إلى جانب أخيه عند المقدمـــة، لتتعالى الزغاريد و ترفع البنات أصواتها بأغنيات من نوع:

- يا منجد علي المرتبة و اعمل حساب الشقلبة.

و هـــا هي السيارة توشك على الدخول إلى بلد العروس حيث الليلة الموعودة و الفرح، و وليمة العشاء التي أقسم الأب أنها

سوف تكون خروفاً، لأن العريس دفع مهراً زاد عن ألف من الجنـيهات، و رغـم كـل ذلك الضجيج، وكل تلك الهيصة، ورغم نوء العجلات بحملها، إلا أن قائد المسيرة كان متمالكاً نفسه و لم يفقد قدرته على التركيز، مع كل الغبار المتصاعد من الطريق الترابي، و الحاجب لرؤية الطريق أحياناً، و ظل اسماعيل حريصاً على ألا يستخدم آلة التنبيه مهما كان الأمر، فصـوت السـارينة لا يلـيق بحفلة عرس و لا نقل عريس وأهلـه، بـرغم أن الطـريق ضيقة و السير فيها باتجاهين متخالفين.

بدأت الشمس تنسحب فاسحة المجال لليل وقور يتقدم حثيـثاً، ممـا جعـل الرؤية تصعب قليلاً، و قبل كيلومترات معدودة من البلدة، برزت فجأة سيارة نقل ضخمة في مواجهة موكـب الفـرح السـعيد، مما اضطر قائد المسيرة الصاخبة للانحراف عنها بشدة ناحية اليسار، لتصطدم سيارة الاسعاف الحكومي بشجرة كافور عجوز، تصدت بكل ما تملك من قوة و اصـرار على البقاء لحديد السيارة القديمة، فأجهزت على

الرفـرف الأمامـي بيـن شهقات الجميع و حوقلتهم و بكاء وصراخ الصغار و الكبار أيضاً.

تلفـت الجميع حولهم، لم تكن من إصابات يعتد بها، غير الخبطة التي ورّمت جبهة الخال أبو حسين و الذي أعلن للجميع:

- قـدّر و لطف .. انزلوا كلكم و خذوها على أرجلكم لبيت العروس لحد ما نصلح العربة أنا و اسماعيل ونحصلكم .

الأرض

مســـاحة الأرض ألـــف مـــتر مربع بالكامل و وفقاً للتخطـــيط المعماري فهي مخصصة لثمان بنايات فقط، لذلك فالجهة الشمالية تحدها بثلاثة عمارات فاخرة لا يزيد ارتفاعها عن أربعة طوابق، و كذلك حدودها من الشرق و الغرب فثمة بنايتين على كل منهما، أما ضلعها الجنوبي بكامله، فيقع عليه مبـــنى المدرســـة البتدائـــية المشتركة التابعة للحكومة و هي المدرســـة التي ما كانت لتوجد في هذه الضاحية الجديدة من المديـــنة لـــولا التـــبرع المالـــي الكبير لأمير خليجي سُميت المدرسة على اسمه بعد أن اقتطعت حصة كبار رجال التعليم من التبرع و أودعت في جيوبهم، كل حسب موقعه الوظيفي و مدى قربه من سلطة اتخاذ القرار.

صـــاحب العمـــارة الأقرب إلى المدرسة قدم تبرعاً أيضا، فدهن واجهة المدرسة باللون الابيض المتبقي من دهان عمارته، مما حمّس مدرس الرسم كثيراً فرسم عليها أهرامات

ثلاثـــة و علـــم الجمهوريـــة و كتب تحتهم: مدرستي جميلة. نظيفة. متطورة.

فـــي التخطيط الرسمي لمسؤولي الحي، الأرض هي حديقة عامة، لذلك أندفع بعض الموظفين ذات صباح باتجاهها بـــناء على إلحاح اصحاب العمارات المطلة عليها المشفوع بإكراميات و هدايا لهؤلاء الموظفين، و قد جاؤوا بعربات من الطمـــي و عدد من العمال و ثلاثين شجيرة صغيرة من نوع الفيكس و هو نوع من الاشجار كان قدر المدينة منذ ما يزيد عـــن نصف قرن بسبب تفشي البيروقراطية و انعدام الخيال والحـــس الجمالـــي عـــند الحكومـــة و رجالها و موظفيها، وســـرعان ما قام العمال بفرش الطين و غرز الشجر و دق حنفية ماء وُضعت على عجل و ربما بقطع غيار قديمة لأنها ظلت تخر و تسرسب بمجرد ذهابهم، لتشكل و منذ ذلك الحين بحيرة صغيرة مستديمة و على مدى الشهور التي تلت ذلك.

كان ما تم كله مفاجأة كبرى لتلاميذ المدرسة الصغار، الذين عادوا إلى مدرستهم بعد انتهاء العطلة الصيفية الطويلة، فما أن انتهى اليوم الدراسي بعد الظهيرة بساعة، حتى خرجوا

مـــن بـــاب المدرسة إلى الحديقة الجديدة، جارين لاهين و قد أخذتهـــم الـــتحولات الهائلـــة التي تمت على قطعة الأرض الخراب المقابلة لمدرستهم و التي بقيت لعدة سنوات قبل ذلك أرضـــاً يـــباباً موحشة. لقد أخذ بعضهم يتلمس بيديه الأشجار الفتية و أعوادها النحيلة التي لم تشتد بعد. البعض الآخر آثر أن يهـــزها هـــزاً عنيفاً و كأنه يؤنبها أو ينتقم منها ومن كل الأشجار التي تمد مدرسيهم بأعوادها لتكون عصياً يضربونهم بهـــا. الصـــيدليات القريبة من المدرسة و من بيوت التلاميذ اســـتفادت من التحولات الجديدة للأرض، فالصغار المدركون و الحساســـون أكثر من غيرهم لسحر و بهجة الماء لم يفوتوا الفرصـــة و راحـــوا يرشون بعضهم بعضاً بسرسوب الحنفية مزمـــن الإنفلات مما أصاب بعضهم بزكام خفيف و البعض الآخر بكحة يتردد إيقاعها مع ارتفاع درجة حرارة أجسادهم الضعيفة التي باتت محتاجة إلى حقن و أشربة مهدئة للسعال و مضادات حيوية و عقاقير أخرى.

عمومًا لم يمر إلا وقت قليل و كانت الأرض أطلال حديقة رددت العصافير لها و بزقزقتها المعهودة "قفانبك" وعلى عكس العصافير و الغربان و كلاب الحي الضالة التي كانت تعول على الحديقة ذات يوم لأن تكون مأوى لها، فإن سكان العمارات الذين لا يظهرون إلا لماماً حين يدخلون أو يخرجون من سياراتهم لم يعيروا الأمر إهتماماً، خصوصاً مُلاك العمارات الذين اعتبروا أن المرحومة الخضراء أدت مهمتها في العالم، فقد زادت بالفعل من قيمة وحداتهم السكنية المباعة و هم الذين طالما رددوا للمقبلين على شراءها " إن الموقع فريد و يطل على حديقة و هو أمر قلما يوجد في اي مكان بهذه المدينة ".

عروس شابة تنحدر من أصول تركية هاجرت من هضبة الأناضول بسبب الفقر زمن السيادة التركية سرعان ما تحولت إلى أسرة من " مساتير الناس " لأنه في مصر " الشيخ البعيد سره باتع " قالت لزوجها بعد وصال سريع أعقبه استحمام و ارتشاف قهوة العصاري في الشرفة المطلة على الحديقة:

- بلـــد مقــرفة و شــعب جاهل. العيال خربوا الجنينة وكسروا فروع الشجر كله. أولاد فلاحين بلا تربية.

ثم رشفت رشفات طويلة ملتذة من فنجان قهوتها التركية.

بعض من سكان الشقق الآخرين، كان تعليقه على ما حدث عملـــياً، فقد آثر زيادة الزهور الصناعية التايوانية المزروعة فـــي مزهريات البورسلين بغرف الصالون المذهبة، أو راح يعلـــق أغصــــان بلاســـتيكية خضراء كثيفة في سقف شرفته وتـــركها تتدلى فوق رأسه الفارغ من أية أفكار عميقة عندما يجلـــس محملقاً في الأفق أو مهموماً لأن شهيته للطعام لم تعد قوية مثلما كانت من قبل.

حراس العمارات المحيطة بالأرض، و كذا عائلاتهم و هـــم الأكثر ظهوراً و انتشاراً في المكان ظلوا يراقبون ما جرى للحديقة عن كثب، سواء أثناء جلوسهم الطويل أو حينما يتمشـــون علـــى الأرصــــفة المقابلة لهم أمام العمارات التي يعملـــون بهـــا أو هم رائحون غادون محملين بطلبات سكان الشقق و حاجياتهم المجلوبة من السوق القريب.

كـــان معظـــم هؤلاء البوابين فلاحين في الأصل، لم يغـــادروا قراهم منذ عشرات السنين، لكنهم اضطروا للنزوح إلى المدينة، بعد أن ضاقت بهم الحياة و التهم الأرض طوفان الطـــوب و الأســـمنت، فباتوا لا يجدون ما يزرعون فيه أو يبـــيعون قـــوة عملهم بسببه، فانتشروا في المدينة كالجراد ، وكان هؤلاء يعتبرون من أصحاب الحظ السعيد قياساً لأولئك الذيـــن لم يجدوا فرصة البوابة، فهم يتقاضون أجرة شهرية، ويحصـــلون على ملابس و طعام و أحذية تكون فائضة عن حاجة سكان العمارات، و ربما بسبب عدم اهتمامهم بالشؤون العلـــيا، و التي هي شأن حكر على الحكومة وحدها، فإنهم لم يفهموا أبداً، كيف أن الحكومة تحرص دوماً على تبديد أغلى شيء في الحياة، و هو الأرض و تزرعها بمثل هذه الأشجار التـــي لا تثمر و لا تفيد و لا ينتفع منها حتى في الفيء، فلا تـــرعة و لا غـــيط فـــي هذا المكان، يستلزم شجرة يستظل الانسان بظلها، و ربما لذلك السبب أيضاً، أو لأسباب أخرى تتعلق بالطبيعة الخالدة للفلاحين، فإن هؤلاء البوابين لم ينهروا تلميذاً يعبث بشجرة، و لم يحركوا ساكناً، بينما كان العفاريت

الصغار الخارجين من المدرسة، يغيرون على الجذوع الغضة و الأغصان الصغيرة و يسحقونها سحقاً بكل ما لديهم من همة و نشاط.

أنقضــت شهور أخرى، قبل أن تخضر الأرض من جديـد ، و لكــن علـــى نحو مغاير، و بفلسفة مغايرة لفلسفة الحكومـــة الجدبـــاء، فقد بادر بواب العمارة الأولى من ناحية الشمال، و بالتعاون مع زوجته و أثنين من أبنائه الستة، و قام بعـــزق الأرض و تقليـــبها و زراعـــتها بخطيـــن من الفجل والجرجير، و بسبب الطبيعة الخالدة للشعب المصري و التي لا تعرفها سيدة القهوة التركية، فقد جاوبه بواب العمارة الثانية مـــن الجهـــة الشرقية، و زرع خمسة خطوط بصل أخضر، وبالطـــبع لـــم يسكت بواب العمارة الغربية الثانية فزرع من ناحيـــته الذرة،إضـــافة إلى مساحة لا بأس بها من شجيرات الطمـــاطم و بعض من الكرنب، فما أن عاد تلاميذ المدرسة مـــرة اخـــرى بعد انتهاء العطلة الصيفية الطويلة،إلا و كانت تباشـــير الخـــريف تلوح على سوق كاملة للخضار تبزغ من

الأرض، فلم يترددوا و بمجرد إنتهاء يومهم الدراسي الأول، و فتح بوابة المدرسة للإنصراف، إلا و كانوا قد انقضو على الأرض مـــرة أخـــرى، و راحـــوا يهاجمون أحواض الفجل والجرجير و يغيرون على عيدان الذرة الخضراء، و يجمعون محصـــول الطمـــاطم البازغة، و يودعونه أفواههم دون أدنى تردد أو تفكير.

كان سكان العمارات الذين شهدوا الموقف على ثبات موقفهـــم، فواصـــلت النســـاء نشر غسيلهم دون أدنى مبالاة، والرجال الذين كانوا وقتها مازالوا نائمين بالبيوت سواء بسبب السهر و الفرجة على نجمات الفضائيات الجميلات أو لأسباب أخرى تتعلق بأمور مشابهة، فقد اكتفوا بالتثاؤب و هز أكتافهم عندما حكت لهم زوجاتهم تفاصيل ما تم في الحديقة بعد ذلك.

حـــراس العمارات الست هم الوحيدون الذين استقبلوا الأحـــداث الجديـــدة بروح مغايرة، فقد غلى الدم في عروقهم بسرعة، و لم يكتفوا بسب و لعن التلاميذ و آبائهم، و بأسماء الأعضاء السفلية المقدسة لأمهاتهم، بل جرى بعضهم و نادى على عياله، فجاءوا بالعصى و المقشات و الطوب، و راحوا

يضـــربون و يقذفون التلاميذ في محاولة لهشهم عن حقولهم الخضراء و إنقاذها من غارتهم الرعناء.

أصابت طوبة تلميذة صغيرة لم تستطع الجري، بسبب إصـــابتها بشـــلل الأطفال، و لسوء الحظ كانت الأصابة في عينها، فما أن تدفق منها الدم و صرخت حتى اختفى الجميع مـــن أرض المعـــركة، لـــتدخل الحكاية كلها في طور جديد مختلف تماماً، إذ جاء البوليس إلى المدرسة بناء على مكالمة تليفونـــية مـــن مُدرّســـة الحساب التي آثرت التأخر قليلاً بعد انتهاء اليوم الدراسي لتصحيح كراساتها، بينما ناضلت البنت محاطـــة بـــبعض أقرانها لتدخل المدرسة مرة أخرى، و بعد تقصٍ شكلاني للحقائق قيد الحادث ضد مجهول و نقلت البنت إلى المستشفى.

أمـــا رئـــيس الحـــي الذي جاء بنفسه هذه المرة لمعاينة الأرض و الوقـــوف على ما جرى للحديقة العامة، فقد ظهر مســـتاءً طـــوال الوقـــت و متأففاً، لكن ذلك لم يمنع صاحب العمـــارة رقـــم واحد من جهة اليمين و هو الذي كان قد أنشأ

مسـسـجداً صــغيراً بدلاً من الجراج القانوني، ليتمتع بالإعفاء الضريبي، لأن يتقدم من الرئيس المتأفف و يقول له:

- أظــن يــا افـندم بعد كل ما جرى، آن الأوان لأن الأرض تتحول لجامع للصلاة و دار مناسبات للعزاء، و أنــا اقترحت الفكرة على سعادتك عدة مرات لأن مســجد العمــارة أصــبح لا يســتوعب العدد الكبير للمصلين.

و وعده مدير الحي صادقاً أن يفكر في الأمر بجد هذه المرة.

عبد الدايم محمود خليل

تابعــت مــا أســماه هو" قصيدة" بحماس من يتابع نشرة الأحــوال الجويــة أمــام التلفزيون، فالتوقيت لم يكن شعريا بالنسبة إلي على الاطلاق، و قد جئته بينما أنا أغلي على نار، لا أعــرف رأسي من رجليّ و ما سيؤول إليه مصيري، فأنا علــى وشــك أن أطــرد من الشقة التي تؤويني، و يرفض صاحب العمارة مالك الشقة تغيير عقد إيجارها المكتوب باسم أمــي التــي ماتت مؤخراً إلى اسمي. و لكي أكون صريحة وصــادقة كذلك، فعليّ القول أن المسألة لم تكن متعلقة بالشقة وإمكانــية تشــردي في حالة طردي منها فقط ، لكن القصيدة كانــت مريعة حقاً، و الشعر الرديء – و كما يعرف الجميع – يســبب أوجاعاً لا تقل عن أوجاع البواسير الملتهبة، فهو يخلــق إشــكالية حقيقــية مع مقعدة المرء، و ها هو الرجل يجبرنــي علــى الجلوس و متابعة ما كتبه من عبارات تخلو تمامــاً من أية صور بلاغية تقريباً، و تفتقد إلى أي شكل من

أشكال الموسيقى الداخلية أو الخارجية، و فكرتها عن الخلود مكرورة و قالها أنكيدو في جلجامش منذ أكثر من أربعة آلاف سنة دون أن يسبب أدنى ألم أو مضايقة لجنس مخلوق، وعلى رغـم ذلـك كلـه فقد افترضت ابتسامة على شفتي و طيبت خاطـره بكلمتيـن و جلست قبالته كفتاة صغيرة مهذبة تفتح البـاب لضـيوف جاؤوا لمعاودة أبيها الراقد في سريره وهو علـى وشـك المـوت، ثـم إني تجاهلت حقيقة أنه كهل فقد السـيطرة على ما تنتجه غدده اللعابية فلم يحسن توجيه ذلك الإنتاج إلى داخل فمه و سمح له بحرية الانسياب على زاويتي شـفتيه و تشكيل كرات صغيرة بيضاء إلى زاويتي تنمو شيئاً فشـيئاً، و كنت أراعي على رغم كل شيء ، قرابتنا العائلية وفـارق السن بيني و بينه، لذلك قلت بعد أن انتهى من قراءة القصيدة :

- هل كتبتها منذ فترة؟

تنهد بارتياح و بدا و كأنه على وشك التجشؤ بينما كان يعود بكرسيه إلى الوراء قليلاً وتلتمع عيناه كطفل حصل لتوه على نجمة في دفتره المدرسي و رد:

- كتبـــتها منذ حوالي شهرين. هي آخر قصيدة كتبتها. هه. ما رأيك معقولة و صالحة للنشر!؟.

لم أستطع الكذب فقلت:

– محـــتاجة لبعض التعديلات و الشغل، فمثلا عبارة " الخلود هو الأمل " مباشرة و تحتاج إلى إعادة نظر، كما أن القصيدة بحاجـــة إلـــى إغـــنائها ببعض الصور البلاغية. حاول قراءة دواوين شعرية قديمة و معاصرة، لأن التطور في الشعر الآن كبير جداً، و قديماً قالوا: إنك إن حفظت ألف بيت من الشعر قد تصبح شاعراً.

لا أعـــرف هل أعجبه كلامي أم لا، لكن عينيه اتسعتا بدهشة واضحة و اكتفى بأن قال و هو يهز رأسه:

- آه.

كانـــت لوحـــة الإعلانات الضخمة المثبتة أعلى العمارة المقابلـــة لمكتبه حيث نجلس تفرض وجودها علينا من الشباك المفتوح، و تبدو منها شابة مستلقية على الرمال بلباس البحر بيـــنما يسيل شعرها الذهبي على كتفها الأبيض، و هي تمسك

بيدها زجاجة مياه غازية كتب تحتها " المتعة الخالدة" ، قرأت العبارة مراراً و تكراراً، أما هو فقال بعد مقطع صمت قصير لم يمنع الحسناء من مواصلة الابتسام:

- يعنـــي رأيــك أنها معقولة، عندي خمسة و عشرين قصيدة غيرها، و أمنيتي هي طبعها في ديوان، نفسي في طبع ديوان ليّ، هل تعرفي أي ناشر يوافق على نشــر ديوان لي؟، و أنا مستعد حتى لدفع فلوس، أي والله مستعد لدفع فلوس.

فاجأني طلبه و قد رق معه صوته، كأنه يترجّى، أربكني قليلاً، فهو يعرف جيداً علاقتي بالناشرين نظراً لطبيعة عملي كصـــحفية أحرر صفحة الكتب و الإصدارات الجديدة بمجلة أسبوعية سيارة، مما يتيح لي توجيهه و الإشارة عليه بناشر أو أكــثر قد يساعده على نشر ديوانه. تأملت شعره الغزير الـــناعم و قد بدا و كأنه خلط بعلبة كاملة من بودرة الأطفال الملطفـــة، و دققـــت في شفرة خطوط بشرته الرفيعة المعقدة والمكتســحة أوسع مساحة من وجهه، ثم اقترحت بأقصى ما أستطيعه خلال هذه اللحظات من تهذيب:

- علـــيك أن تنقح القصائد أولاً، و يجب مراجعتها قبل تقديمهـــا لأي ناشر، و بعد ذلك نتكلم في الموضوع وربنا يسهل.
- طيب، اتركيني فترة أبص فيها و أراجعها من جديد، و أعرضها عليك لتقولي رأيك فيها قبل أن أعرضها على أي ناشر.
- طبعا .. بكل سرور.

ثـــم واصـــلنا حديثنا في مشكلة الشقة التي جئت إليه من أجلهـــا، و وعدني أن يبذل أقصى ما في وسعه لإثبات حقي فيها باعتبار أنني كنت أقيم فيها مع أمي قبل وفاتها، و ودعني و هو يذكرني بأنني قريبته و يتوجب على كل منا أن يساعد الآخر.

مر حوالي شهر وإذا به يتصل ليقول أنه رفع قضية ضد صـــاحب العمــــارة في المحكمة و أن كل شيء يسير على ما يرام، ثم سألني عن أحوالي في العمل و صحتي و أضاف:

- عـــندي لــك خبر حلو. أنا انتهيت من تنقيح الديوان وقصـــيدة " خلود " أصبحت رائعة. اسمعي و حياتك هذا الجزء الصغير منها:

لست أنا

و لا أنت

ليست حواء

و ليس آدم

من رام الخلود فقط

بل حتى الطيور في عليائها

و فرس النهر المتكاسل تحت الشمس

و سمكات البحار العميقة

كلهم ينشدون الخلود.

- قلت في سري: يالها من مهزلة.

أما هو فقد جاءني صوته مسترخياً سعيداً و هو يقول:

- ما رأيك في "رام" التي استخدمتها أليست شعرية جداً، ابتسـمت و أنا اقول .. شعرية طبعاً، واصل كلامه وأبلغنـــي انـــه يريد ان يراني في أسرع وقت ممكن

ليعطيني القصائد لأقرأها و أقول رأيي فيها وأحدد له الناشر الذي سينشرها عنده، ثم أقفل الخط.

حرت في أمر قريبي البعيد الأستاذ عبد الدايم وإصراره ليس على نشر الديوان و لكن على كتابة الشعر أصلاً، فهو رجل يقترب من السبعين على أقل تقدير، محام ناجح و ميسور و ينتمي إلى الفرع الثري من عائلة أمي، ثم هو أب لستة أولاد و جد لثمانية أحفاد، حياته السعيدة يتمناها الكثيرون و صحته مقارنة بمن هم في مثل عمره نعمة لا تصيب عديداً ممن شاخوا، تساءلت بدهشة: ما الذي يريده هذا الرجل، أكثر من كل هذا، لماذا هذا الشوق العارم لأن يكون له ديوان؟! ألا يعلم ما الذي يكابده الشعراء؟! و أية معاناة يعانونها في الحياة، فالشعر لا يسمن و لا يغني من جوع، ومعظمهم يعاملون معاملة المهمشين المهملين، خصوصاً إن كانوا صادقين يقولون الحقيقة و يكشفون عما هو قبيح معيب، ثم ما الذي سوف يضيفه إليه هذا الإصدار الشعري و هو في مثل هذا العمر المتقدم؟!

- " نفســـي أشعر انني عملت حاجة حقيقية و لها معنى فـــي حياتـــي " . هكذا قال لي عندما التقيته بعد ذلك بيوميــن لآخــذ الأشعار منه و أقرأها، نفسي أعمل حاجـــة لنفســـي، حاجة أحس فيها أني نفسي.. آه لو تعرفي معنى الديوان بالنسبة لي " .

بدا لي كطفل شائب، أو شائب طفل، يحلم بتطيير طيارته الورقية الملونة بعيداً بعيداً حيث تضيع و تختفي في أبعد نقطة بالسماء، فقد كان جاداً و حزيناً و بدا و كأنه يتحدث إلى نفسه أكثر مما يوجه لي الكلام و هو يقول:

- تصوري مثلاً ما معنى حياة واحد مثلي اسمه عبد الدايم محمـــود خلـــيل، اشتغل بالمحاماة لمدة خمسة و أربعين سنة وخلـــف كومـــة عيال و تزوج مرتين، ثم يموت.. ما معنى هـــذا، هه؟! ما معنى هذه الحياة التي كانت لعبد الدايم محمود خليل؟!

التمعـــت دمـــوع فـــي عينـــيه ، أخـــرج منديله و مسح أنفه وواصل:

- ديـــوان شعر واحد بس، ديوان في حياة عيني، كنوع من المعنى يعني !.

لم أعرف بأي الكلمات يتوجب عليّ أن أجيبه، أخذت منه القصـــائد و ودعته بعد أن وعدته بقراءتها في أقرب فرصة تسنح لي، و كنت أعرف و أنا أقول له ذلك بجد، أن قراءتها ستكون مهمة ثقيلة على نفسي، و أنني سأحتاج جهداً عصبياً هـــائلاً لمتابعة ما كتبه و يعتقد أنه شعر، و أظن أنه سذاجات كلامية، لكني كنت قد فكرت كثيراً في كل ما قاله و كانت تلح عليّ صورته و هو يقول:

- مـــا معـــنى هذه الحياة التي كانت لعبد الدايم محمود خليل؟!

فآليـــت علـــى نفسي أن أساعده على نشر الديوان مهما كان الأمر.



أمي العزيزة

بادلتُهُ الحب منذ اللحظة الأولى التي رآها فيها، كان الوقت قبيل مساء ليلة الخميس المعتادة من كل أسبوع. فها هو يعـــود بعـــد يوم عمل طويل شاق بالدكان إلى أمه، فتحممه بالماء الدافئ و الصابون النابلسي، و تلبسه غياراً نظيفاً غير هدومه المتسخة، ثم تقبله و تضمه إلى صدرها و هي تقول له:

- ربنا يحميك و يطوّل في عمرك يا يوسف يا ضنايا، انهض طوالي و امشي لستك. إياك تزوّغ هنا و لا هناك و الليل يليّل عليك.

رفعـــت يدهـــا إلـــى صـــدرها، حيث بنكها الصغير الخـــاص. أخرجت منه الفلوس المصرورة في منديل تحشره مـــا بين ثدييها. أضافت بينما أخذت تفك عقدته و تخرج منه جنيهاً تعطيه له:

- هات لك رغيف لحمة و كُله و أنت ماشي و اشبع ، خلي فراج يتوصى بك.

كان يعرف أنها تقصد لحم الرأس طبعاً، فأمثالهم من الناس و كما تقول له دوماً، كُتب عليهم أكل رؤوس و أرجل ما أحله الله من نعم الذبائح لعباده على الأرض.

مشـــى يداخله شعور مؤلم بالوحدة و القهر، فهو لن يبيت هذه الليلة في أحضانها، و لن ينعم برائحة أنفاسها،و تلك الربتات الحانية على مؤخرته بيدها الطرية التي تدفع بشعور غامـــر من الأمان و الطمأنينة إلى روحه. كم يكره النوم إلى جـــوار جدته على سريرها الضيق الذي ينحشر فيه دون أن يـــتمدد براحــــته و يفرد رجليه بينما يتعالى شخيرها الأجش الخشـــن طوال الليل و هو ما يذكره بصوت فأرة عبد الجبار حيـــن يكحـــت الخشـــب في الدكان،مشى مسلماً أمره إلى الله وتوجه إلى دكان فراج بائع السمين في الشارع الكبير المنتهية إليه حارتهم و ابتاع الرغيف منه، فتحه و تأمل ما بداخله من قطـــع لحـــم قليلة متناثرة على أرضية رغيف الخبز الأسمر

الـــبلدي، زفـــر بضيق لأن فراج لم يتوصى به قط بل ونهره قائلاً له:

- أمك قالت لك أتوصى!. هي هبلة و لا سايقة الهبل؟. رغيف بجنيه و أتوصى؟. يعني السائل صاحب الحاجة لو مدتت يدك لـــه بجنيه حسنة يبص لك من تحت لفوق و يتمسخر عليك ويرجعه لك. شيل الرغيف و اتكل على الله و احمد ربك إنك لقيت بني آدم يبيع لك رغيف اللحمة بجنيه.

سار مرة أخرى متمهلاً في الطريق آخذاً في قضم قضمات كبيرة متلهفة، متلذذاً كلما صادفته بين أضراسه قطعة من لحم الرغيف القليل، فهو لم يتذوقه منذ أسبوع بالتمام.

فجـــأة و بيـــنما كان يعبر من تحت الكوبري الواسع الممـــتد، و الذي تجتازه عربات مسرعة مجنونة طيلة الوقت ويمـــر من تحته أناس كثيرون لا يتوقف أي منهم لينظر في وجـــه الآخـــر، أو حـــتى ليطالع اللافتات الاعلانية الضخمة المثبتة على جانبيه و التي تظهر عليها صور أطفال ضاحكين تضـــع لهم أمهات شابات حفاضات و تبرز فوقها مؤخراتهم البيضـــاء السمينة، رآها تقف أمامه تتطلع إليه. كانت سوداء

ضخمة، تتهدل من بطنها ستة حلمات وردية طويلة و تفيض عيسناها العسسليتان بنظرات حنون آسرة، أشعلت بقلبه حنيناً ذكسرّه بأمسه التي غادر بيتها منذ قليل، و جعله يشتاق إليها فتسنهد و زفسر حانقاً على الدنيا، إذ كان صوتها مازال يرن بأذنسه و هسي ترقيه ماسحة على رأسه و مزررة له أزرار قميصه النظيف بينما تقرأ له الفاتحة و قُل الله أحد.

رمى لها بلقمة من الرغيف مع قطعة لحمة صغيرة، التهمتها سريعاً، أعقبها بلقمة أخرى مدت حبل الوداد بينهما. فأدخلها قلبه و أدخلته قلبها دون أية حسابات، و سارت خلفه إذ سسار متابعاً طريقه إلى بيت جدته التي تسكن في الطرف الآخر من الطريق، حيث من المفترض ان يبيت ليلته عندها، مثلما جرت العادة كل مساء خميس، لأن زوج أمه كان يأتي إلسيها عند ذلك الوقت من كل أسبوع ليبيت في أحضانها بدلاً منه.

شعر بعظمة صغيرة تستعصي على المضغ تتحشر بين أسنانه بينما هو يتذكر زوج أمه. لفظ اللقمة التي بها العظمة من فمه سـريعاً و قـد ضايقه ذلك قليلاً. توقف ريثما ينتهي و يلتقط أنفاسـه، بيـنما كانت هي تقارب خطواتها منه أكثر، توقفت بدورهـا و راحـت تتطلع إليه ثم سرعان ما تابعت تحريك أرجلها خلفه متعقبة خطواته المتلاحقة حيناً، و المتباطئة حيناً آخـر، كلما صادفه بائع يفترش الأرض عارضاً بضاعته من سـكاكين و ملاعـق وأدوات منزلية أخرى إضافة إلى لعب أطفال و كبار، أو جماعة من الأولاد يلعبون الكرة في عرض الطـريق، فيـتوقف للفرجة قليلاً ثم يعاود مسيره مرة أخرى حـتى وصل إلى بيت جدته، لتبيت ليلتها أمام الباب منتظرة إيـاه حـتى خرج إليها عند الصباح و من يومها و هي لا تفارقـه أبداً إلا عندما يأوي إلى فراشه للنوم إذ تظل تنتظره كشمس على وشك البزوغ أمام بيت أمه أو حيث تسكن جدته في صباحات ليالي الخميس.

كانـــت العلاقـــة الخاصـــة بيـــنهما تـــتطور بسرعة وتتلاحق، فقد سمحت له بملامستها و احتضانها و تقبيلها، بل و تحســـس أثداءهـــا واحداً واحداً بيده الصغيرة الطرية ، أما هـــو، فقـــد تـــركها تتشممه بين الحين و الحين، و تمد يدها لـــتلامس صدره لتعبر عملياً، بينما هي تنظر عميقاً في عينيه عـــن أقوى مشاعر الوله به، أما طعامه فقد بقيت تشاركه إياه مهمـــا كان، و تزدرد ما يقدمه لها من لقيمات خبز و فول أو بعـــض بقايـــا الأكلات مما تحضره أمه معها عند آخر اليوم ويجـــود عليها به أصحاب البيوت بعد تنظيفها و خدمتها لهم. حـــتى الفطائـــر و الـــتمر الذي يوزعه أهل الموتى الزائرين لأعـــزائهم في الترب، كانت تحصل على نصيبها مما يحصل هـــو علـــيه منهم و تأكله بنهم بينما ترسل إليه تلك النظرات الحانية الممتنة المزمنة و كأنها تؤمن به إيماناً أبدياً مطلقاً لا يزحزحها عنه شيء.

نهـــرته أمه كثيراً و حاولت إبعاده عنها مراراً، لكنه لـــم يأبـــه لها، و لا لتحذير جدته و هي تقول له: " إياك أن تعضـــك، لأن شكلها والدة و عيالها راحوا منها و متحسرة

عليهم" . لم يحفل بكل هذا، بل كان يشعر أنها تحبه أكثر من عيالها الذين لم يرهم يوماً و لا يعرف عنهم شيئاً، بل و تحبه أكثر من العالم كله، و تعامله بحنان يستشعره ربما أكثر من حنان أمه نفسها، لأنها لا تفارقه أبداً، و لا حتى في ليالي الأخمسة مثلما تفعل أمه و تتخلى عنه فيسنح الجو لزوجها وينفرد بها. هي تتبعه كل يوم في الصباح عندما يذهب إلى معلمه عبد الجبار النجار في الدكان، فتسير خلفه حتى هناك و تظل واقفة بالقرب من باب الدكان إلى أن ينتهي من عمله بعد العصر، فتقفل عائدة معه إلى حجرة أمه حيث يقطن معها بتلك الحجرة الصغيرة التي تؤجرها بحوش من أحواش سيد التربي في قرافة السيدة نفيسة.

هو لم يحب عبد الجبار النجار معلمه أبداً، و لم يحب النجارة، و كان يتمنى لو ظل مستمراً في الذهاب إلى مدرسته، و هو لا يحب الشحات زوج أمه كذلك، لأنه أشار على أمه بأن تخرجه من المدرسة و تدفعه إلى طريق الصنعة. كان يكرهه كلما فكر في ذلك و يتذكره و هو جالس

متكــئاً على الكنبة بحجرة أمه ساحباً أنفاساً من الجوزة قائلاً لها:

- مــدارس و علام؟، بلا خيبة. التعليم كان زمن عبد الناصر و طــرد الاســتعمار. الثورة زمان كانت عاوزة الناس تتعلم وتتساوى، و تصير أصابع اليد كلها طول واحد. الزمن أصبح زمــن القرش و الفلوس و حتى لو عملتِ المستحيل و علمتِ ابــنك أحســن تعليم من رابع المستحيلات بعد نوال الشهادة يشــتغل إلا بواســطة كبيرة أو رشوة. أنا ذات نفسي حاصل على دبلوم صنايع من حوالي خمس سنين لكني قاعد لا شغلة و لا مشــغلة، على رغم إني حفيت على شغلة في كل مكان ولم أتوصل لأي نتيجة لأن البلد صارت تعيش على المستورد وبضــاعة الصــين تلاقيها مرمية برخص التراب من الإبرة للصــاروخ في كل مكان. علّميه أي شغلانة يلقط منها رزقه وتأكله لقمة عيش و تنفعه.

كان يقول لها ذلك ثم يضيف:

- بالمناسبة، هاتي خمسين جنيه لأني عاوزهم ضروري.

كـــان يكـــره هذا الرجل كثيراً كلما أخذ من أمه الفلوس دون أدنى حرج و هو عاطل عن العمل معظم الوقت على رغم أنه حاصـــل علـــى دبلوم صناعة لكنه يعمل كمبيض محارة بين حيـــن و آخـــر بينما تخرج أمه كل يوم لتعمل بالبيوت حتى تحصـــل علــــى ما يكفيها و يكفيه هو و يبيتا في هذه الحجرة داخل الترب و تدفع إيجارها.

لـــم تعـــترض أمه على طلبه الفلوس منها أبداً، رغم علمها أن الشحات سوف يشتري بها الكيف و السجائر ليدخن و ينســـطل و كانـــت تبدو خلال ذلك و كأنها خائفة منه فتمد يدها إلى صدرها و تعطيه ما يطلبه. أما هو فيتأفف منها قليلاً و يتعجـــب و يداخله شعور بالكراهية لها و هي تفعل ذلك، فلمـــاذا تعطـــي هذا الرجل من مالها الذي تجنيه بعرقها من العمل في البيوت و تنظيفها لها طيلة الوقت؟. لم يكن يفهم هذا أبداً، و عندما سأل جدته عن ذلك ذات مرة ابتسمت و غمزت له بعينها و هي تقول:

- جوزهـــا وـــله حق عليها، يعني تقعد بلا رجل يفتح عليها الباب و يحميها من أولاد الحرام و هي شابة صغيرة؟. يعني

عاوزها تمشي في البطال و تعمل ما لا يرضي ربنا؟. أبوك مـــات و أنـــت لحمـــة حمراء في حجرها. قسمتها و نصيبها وخلاص.

كلمات جدته لم تقنعه أبداً، و لم تغير صورة الشحات بداخلـــه بـــأي شكل من الأشكال فهو يكرهه، و سيظل يمقته حـــتى آخـــر يـــوم من أيام عمره، فبعد أن أشار على أمه بمشـــورته الهـــباب هذه، منعته من الذهاب إلى المدرسة، لم تشـــفع له دموعـــه و صراخه و توسلاته عندها، بأن تتركه يذهـــب إلى المكان الوحيد الذي أحبه في هذه الدنيا، قالت له أنـــه بليد و لن يفلح في العلام، و هي لا تستطيع ان تدفع له ثمـــن الكتب و الكراريس و الدروس الخصوصية و الهدوم، بكـــى و انتحب أكثر و وعدها بأنه سيذاكر و لن يلعب الكرة في الشارع بعد الخروج من المدرسة كل يوم، ثم أخبرها أن المشكلة هي أنه يجلس في آخر الفصل و لا يستطيع أن يرى مـــا يكتب على السبورة جيداً، و لا يمكنه أن يميز الحروف والأرقـــام بوضوح، لكنها لم تستمع إليه، و قالت له أن حجة البلـــيد مسح التختة، و لم تمر أيام على مشورة الشحات، إلا

وكانت قد أخذته من يده لتسلمه إلى عبد الجبار النجار، مقابل جنيه واحد يعطيه له كل يوم، فتأخذ هي نصفه كي تدخره له مثلما تدعي، و لكن ها هو عبد الجبار ينهره و يضربه ويشتمه إذا ما ارتكب أي خطأ، أو تلكأ في مناولته مفكاً أو شاكوشاً، أو غاب قليلاً عندما يرسله إلى مقهى عيد القريب من الدكان ليطلب له كوباً من الشاي أو الحلبة الحصى، ولكن هاهو يتخلص من كل ذلك أيضاً، و على نحو لم يتخيله أو يخطر بباله أبداً، ففي ذات يوم، و بعد أن انتهى عبد الجبار من تركيب أحد الأسرة كان قد انتهى من نجارته وتركيبه، و بعد أن أطفأ جذوة النار المشتعلة أسفل وعاء الغراء، ناداه ليلحق به إلى داخل الدروة التي في نهاية الدكان و لا يراها الرائح و الغادي عادة، فلما دخل عليه، وجده جالساً على الأرض، مفترشاً جريدة قديمة، وضع فوقها أطباقاً من الكباب و الكفتة و السلطة و بضعة أرغفة، ثم أنه ناداه بتحبب مريب لم يعهده منه قبل ذلك و قال:

- تعال يا يوسف. أقعد و كُل لقمة قبل ما تروّح.

كــان ســـاعتها جائعاً جداً، و كانت أصابع الكفتة الممددة في الطبق أمامه على الجرنال تبدو له شهية و مغرية جداً، فجلس متربعاً قبالة عبد الجبار، و راح يأكل بينما ظل يختلس النظر إلـــيه بين الحين و الحين بنظرات حائرة مستريبة و قد عجز عـــن تفسير سبب لطف و دعوة عبد الجبار المفاجئة هذه له، وهو الذي ما دعاه إلى شربة ماء قبل ذلك قط. أكل حتى شعر أن بطـــنه من المستحيل أن يدخلها المزيد من الطعام، وبينما هـــو يهـــم بالقـــيام، إذ بعبد الجبار يربت عليه ربتات لزجة غريبة و هو يتحسس مؤخرته و يقول:

- و الله احلويت يا ولد يا يوسف.

ثـــم أنـــه مد يده و راح يلامسه من الأمام بخشونة، محاولاً إزاحة بنطاله عن فخذيه و تعريتهما، و في هذه الأثناء، وقد وقف مذهولاً متجمداً من الدهشة و الخوف، نبحت هي حيث كانت تقف في الخارج نبحة قوية، تنبه لها عبد الجبار فرماها بقطعة خشب كبيرة كي تبتعد، مما جعله لا يتمالك نفسه، و لم يدر إلا وهو يمسك بوعاء الغراء الذي لم يبرد بعد من مقبضه

و يقــذف به باتجاه عبد الجبار، رافعاً بنطاله و مطلقاً ساقيه للريح.

ظــل يجري بكل ما يمتلك من قوة و هي تعدو خلفه، بيـنما صـرخات عـبد الجبار تتردد في أذنيه، كان قد عبر الحواري و الازقة الضيقة للترب، حتى شعر أنه ابتعد كثيراً عن الدكان، و أن لا أحد خلفه يلحق به فجلس على رصيف الشـارع العمومـي الواسع متلاحق الأنفاس و هو يبكي من الرعـب و الخوف. جلست هي إلى جانبه، مدت رأسها إلى كـتفه، تشممته ثم أسندت يدها على ركبته، أحنى رأسه حتى لامستها، تساقطت دموعه على رقبتها، و بدأ ألم هائل يزحف إلـى حلقـه و يعـيق دخول الهواء إلى صدره. كان يشعر بالوحدة و الضياع و أنه وحيد في هذا العالم، و كان يفكر في انه لا يمكن أن يعود إلى أمه أو جدته، أو لأي انسان يعرفه أبـداً، فـربما مات عبد الجبار و قد حرقه الغراء الساخن أو ربما أصابه مكروه، فأي مصير سوف ينتظره هو حينئذ؟. و كان يفكر في أنه من الأفضل أن يبقى بعيداً حيث لا يعرفه أحـد في هذا الشارع الكبير حيث تجري العربات المتسارعة ويسير الناس الذين لا ينظر أياً منهم في عين الأخر.



صداع نصفي

مـــا أن انتهـــت من صب الحليب في الأكواب الزجاجية الأربعـــة الصغيرة، و قد حاولت أن توزعه عليها بالتساوي قدر استطاعتها، إلا و كانت يده قد امتدت إلى أحدها، لتمسك بــــه و ترفعه سريعاً إلى فمه ليعب ما فيه و يفرغه في جوفه دفعـــة واحــــدة، و كأنه قد عطش الماء لم يشربه منذ أيام، ثم يقول و هو يزدرد ريقه باستمتاع:

- هاتِ آية كبيرة.
- هاتِ حبة ... حبة.

قالت تصحح له ، وهي تضحك و بقيتهم على كلماته التي لم تتجاوز الأربعة أعوام و أضافت:

- بح. خلاص. كل واحد منكم حبة. تشربوا كلكم سوا. سوا.

بدأ يزنّ:

- لأ. عاوز آية. عاوز أشرب اللبن.

صعّد من وتيرة بكائه، و بدأ يرفس برجليه محتجاً، اغتاظت، و قد بدأ يعكر لها صفو يوم راحتها الأسبوعية فصرخت:

- خــلاص خَلص. قلت لك بح. أسكت و غَمس العيش بــالفول. أشرب شاي و كُل فول و حلاوة. جبت لك إمبارح حلاوة طحينية.

قاطعها بإصرار:

- لبن ... عاوز لبن.

بــدأت عصبيته تضايقها بالفعل، فاليوم هو يوم إجازتها، وهي تتمنى ساعة من الاسترخاء بعد شقاء ستة أيام تقف في كل يوم منها منذ الثامنة صباحاً و حتى الخامسة بعد الظهر، لتعود بعدها إليهم في البيت، فتطبخ و تغسل لهم بينما وسطها يكاد أن ينقسم من الألم و التعب.

ارتفع صوتها و كشرت عن أنيابها و هي تأمره:

- أســكت ســاكت و إلا و الله، أجيب لك البعبع و أبو رجل مسلوخة و السلعوة كلهم، يدورون فيك الضرب و العض لحد ما يخلصوني منك. الله.

هو يخاف البعبع لأنه رآه على الأقل مراراً. بالطبع، هو لا يعـــرف أن البعـــبع ما هو إلا أخته الكبرى، و قد أدخلت رجلـــيها فـــي أكمـــام جلابية أمه السوداء الطويلة و وضعت الغربال القديم فوق رأسها لتصر أمها عليه ذيل الجلابية، لتبدأ بعـــد ذلـــك فـــي التحرك و هي تصدر أصواتاً يفترض أنها الأصـــوات المرعـــبة الغامضة للبعبع، فيستجيب هو بالبكاء أولاً، ثـــم بتنفـــيذ الأوامر الصادرة إليه بعد ذلك دون قيد أو شرط، و على رأسها الكف عن البكاء، و المطالبة بأشياء شبه مســـتحيلة، مـــثل المزيد من الحليب الذي يطلبه الآن. أما أبو رجل مسلوخة و السلعوة، فلابد أن يكونا أشد رعباً من فصيلة البعبع، الذي يفضل أن يكتفي به في كل مرة.

ســـكت قليلاً و هو يفكر في كائنات الرعب الجبارة هذه والتي يمكن أن تستدعيها أمه في أي وقت تشاء، فآثر الصمت و السكوت، لكن ذكرى طعم الحليب اللذيذ في فمه سرعان ما هاجت بداخله مرة أخرى، فبدأ في النشيج من جديد متوسلاً، راجياً، معلناً أنه لن يأكل الفول أو الحلاوة.

بـــدأت تشعر هي بالضيق و الغضب فعلاً، ليس بسبب ما يقوله و معاودته البكاء مرة أخرى بكل ذلك الدأب و الإلحاح، و لكـــن ضـــيقها و غضبها كانا على الدنيا و العالم كله، فما الـــذي يمكـــن أن تفعله أكثر مما تفعل الآن في حياتها لأجل إطعامهم و إبقائهم على قيد الحياة؟! هل تقطع نفسها إرباً إرباً و توزعهـــا علـــيهم حتى يحيون على نحو أفضل؟. إنها تكد وتشـــقى كل يوم، و شجيرات الدوالي تتمدد و تنتشر عروقها في ساقيها يوماً بعد آخر لكثرة التعب و الوقوف، و هي تعمل كل ما تستطيعه لتلقم أفواههم الأربعة الصغيرة، بالإضافة إلى فمهـــا هي؛ و كل ما تحصل عليه من المصنع الذي تعمل به يكفـــيهم بالكاد، إن كل ما تدعو الله لأجله، هو ألا تجد نفسها ذات صباح مطرودة من عملها بسبب الماكينات الجديدة التي بـــدأ يســـتخدمها صاحب المصنع في تغليف الحلوى بدلاً من العمـــال و العـــاملات أمثالها، فلا تجد حينئذ ثمن الخبز الذي تطعمهـــم بـــه، إنهـــا تدخـــر مبلغاً زهيداً تقتطعه من راتبها الأســـبوعي، آملـــة أن يكفـــي قبل حلول الشتاء لصنع سقف للحجـــرة التي تؤويهم و قد انهار جزء منها قبل شهرين و لم

يعـــد يفلـــح الـــبوص و الصفيح التي رتقته به في سد الريح وأمطار الشتاء التي لابد و أن تسقط ، وحجزها عنهم.

حاولت أن تكون هادئة برغم كل شيء و قالت له و كأنه سيفهم ما تقول:

- إســـمع. هــو كيلو إلا ربع لبن. أوزعه عليك و على فاتـــن و ناديـــة و ســـمير. كل واحد يشرب نصيبه ويقـــول الحمـــد لله. نادية شربت و سكتت، و سمير شرب و قفل بقه، و فاتن مانابها قدامها. عيبب. أسكت و قـــل الحمد لله. يعني لما يكون عندي فلوس أكثر، أجيـــب لك حليب، و أجيب لك حلويات، و أجيب لك لعـــب و كـــل شـــيء. أســـكت يا الله و هات بوسة وحضن.

نظر إليها صابراً حتى انتهت من خطبها ليقول دون أن يبكي هذه المرة:

- لأ. عاوز أشرب لبن و النبي. و النبي.

نظرت إليه بشفقة، فهو لم يتجاوز الرابعة بعد لكن جسده نحيل قصير و كأنه لم يبلغ سوى عامين. كانت ملامحه جميلة

و نظـــراته المُطلة من عينيه العسليتين تفيض طهراً و براءة. ربتت عليه و ضمته إلى صدرها و هي تقول:

- بكرة. خلاص. بكرة أجيب لك لبن.

كانت تعرف أنها لن تحضر له شيئاً عندما يحل بكرة، فلا نقـــود لديهـــا. فكرت في أنه يجب أنْ تأخذ بنصيحة زميلتها المخضرمة في العمل و الزواج أم محمود، و ثمانية من البنين و البنات غيره، عندما اشتكت لها من موال اللبن الذي يسمعه لها صباح كل يوم جمعة صغيرها هذا، و المصر دوماً على مزيد من الحليب، إذ قالت لها:

- حطـــي علـــيه حبة مياه من الحنفية وقت غليه، يقوم يزيد و يكفي.

ردت عليها:

- لكنه يصير خفيف و صايص.

- صايص؟. و ماله؟. يعني تقطعي نفسك؟.

لـــم يطاوعهـــا قلـــبها على فعل ذلك أبداً، و كانت تقول لـــروحها: " يعنـــي أغشهم و لا أغش نفسي"، لكن مع تزايد الصداع الذي يجتاح نصف رأسها بين الحين و الحين، فكرت

في أن تطبق مشورة أم محمود جدياً، و تخلط اللبن بالماء قبل تقديمه لهم صباح كل جمعة في المرات القادمة.

أخرجتها ابنتها الكبرى مما كانت تفكر فيه و هي تقول:

- خلاص. خلاص يا سعيد. إشرب حبة من عندي.

كانـــت قـــد ارتشـــفت قليلاً من الكوب الذي لم يمتلئ بسائل الطفولـــة الربانـــي إلا لحد يقرب من ثلثيه، و قدمت لأخيها الصـــغير ما تبقى فيه، فبدأ يرفعه إلى فمه مبتسماً بسعادة، ثم ليضم شفتيه الصغيرتين فيما يشبه القبلة و يقول:

- بوسة ... بوسة لأنك حلوة و ساطرة يا نادية.

و كان يقصد شاطرة بالطبع.



بستان أخضر

هذه المرة ليست كالمرة السابقة، برغم أن القطار هو القطــــار ذاته الذي ركبته لتصل إلى المدينة الكبيرة الأخرى، بـــل و توقيـــت تحركه هو التوقيت نفسه: العاشرة إلا الربع صـــباحاً، و حتى جلستها إلى جانب الشباك هي الجلسة ذاتها التـــي كانـــت علـــيها عندما سافرت في المرة الأولى، حيث تستطيع أن تفرد بصرها إلى ما لا نهاية و تمده على خضرة الحقول المتباينة، و مياه النهر السارية المرافقة لرحلة القطار طيلة الطريق.

أجل. هذه المرة ليست كالمرة التي سبقتها، منذ حوالي الشـــهر تقريـــباً، إنها الآن تبدو أكثر هدوءاً و سكينة، تطوح برأســـها إلـــى الـــوراء قليلاً ليرمي بثقله على ظهر المقعد، وتســـبل جفنيها على الزمردتين اللتين طالما تغزّل فيهما ليس شبان و شيوخ، فقط، بل حتى صبية صغار في سن الحلم، ألم يقـــل لهـــا أحدهم ذات يوم، بينما هي تعبر الطريق: "عيناك

بســتان أخضــر". يالــه من تعبير لا تنساه، إذا لم يكن هذا الصــغير قــد قرأ ذلك في كتاب ذات يوم، فلابد أن يصير شاعراً. و لكن أين هذا العابر الآن ... لعله صار شاباً يافعاً، فلقــد مر على ذلك زمن ، و زمن، منذ أن قال لها هذا الفتى الصغير هذه الحقيقة، التي مازالت تميز وجهها، و تحفظ خبراً عــن جمالهــا القديــم، فهاتين الجوهرتين اللتين لهما خُضرة الزمرد الكريم مازالتا تفصحان عن زمانها الذي ولى، زمان العشــق و الصــبابة، و ما قد عاشته أيام شبابها الجميل، أما الآن فلقد ذبل جلدها و تكسر بخطوط و خرائط لا حصر لها. تــنهدت و لعنــت الشركس الذين تنحدر منهم أمها فهي التي أورثــتها تلــك البشــرة الشركسية الضعيفة الحساسة التي لا تصمد في وجه الأيام، و تتكسر سريعاً أمام تواترها مع دفقات الزمان.

حمــدت الله و هي مغمضة عينيها لأنها عاشت حتى لحقت تطورات العلم المذهلة، و التي جعلته يأمر: كن فيكون، و ها هي سوف تذهب إلى تلك المدينة الهائلة حيث لا يعرفها

أحـــد لتعيد ما أفسده الدهر، و لتضع جوهرتيها الثمينتين في موقعهما الذي يليق بهما.

كانـــت صـــور الانقـــلاب الذي بدل حياتها قد أخذت تـــتلاحق أمام عينيها، نعم فما حدث لها، يمكن وصفه على الأقل بالانقلاب، أو هو في الحقيقة، أشبه بالانفجار البركاني العظيم الذي قلب عاليها واطيها كما يقال، تذكرت كيف كانت تجلـــس كعادتهـــا قـبيل الظهيرة بقليل على كنبتها المواجهة للـــبلكون، ترتشف فنجان قهوتها المرة التي لا يمكن وصفها بالصـــباحية أبداً، إذ أنها تغادر سريرها و الشمس على وشك الـــتربع في كبد السماء، كان هذا هو الوقت الذي تصحو فيه مـــن نومها عادة، فهي تسهر طيلة الليل، و لا فرق لديها بين لـــيل و نهـــار، بعـــد أن مات زوجها منذ سنوات، و انتهت خدمتها في مصلحة الأرصاد و أحيلت إلى التقاعد، أما عيالها فقـــد فرقتهم الأيام و ذهبوا إلى حالهم، فسافر من سافر منهم إلى القارات البعيدة طلباً لحياة أفضل، و بقي من بقى ليتوزع على خريطة البلاد مع زوج أو ابن لم يسعفه مجموعه ليبقى للدراسة في جامعة مدينتها الصغيرة.

لقـــد عاشـــت حياة هادئة ناعمة مع زوج دللها كثيراً وقـــدم لها كل شيء ليس فقط أيام حياته الطويلة، و لكن حتى بعـــد مماته فلقد ترك لها الكثير لتعيش منه إضافة إلى راتب معاشـــها، و هـــا هي تجلس لترتشف قهوتها و أمامها أنيس الجلـــيس الخارق الساحق لكل من هم على شاكلتها، صندوق العـــزاء و الأوهام الذي لا يفارق وحدتها منذ الصباح و حتى نهايات المساء، و ها هي المذيعة البيضاء السمينة ذات الشعر الأصفر و الحذاء الأحمر، بلون شفتيها، تقدم حلقة جديدة من بـــرنامجها المزمـــن " كلوا من طيبات ما رزقناكم" و يجلس قبالـــتها خبـــير التغذية المعروف – كما قالت المذيعة – نعيم المغربي.

استمرت في رشف القهوة على إيقاع كلمات المغربي عـــن الكوليســـترول ... تنبهت لما يقوله باهتمام، ألم يقل لها طبيـــبها منذ أسبوعين أن الكوليسترول في دمها مرتفع بعض الشـــيء؟. قامـــت بحماس و أحضرت نوتة التليفونات وقلماً، سجلت بسرعة الرقم الظاهر على الشاشة أسفل الكنار الأسود

لجونلة المذيعة البيضاء مما جعلها تردد على نحو لا شعوري بعضاً مما حفظته عن ظهر قلب من أيام الدراسة البعيدة:

فعن لنا سرب كأن نعاجه

عذارى دوار في ملاء مذيل

كان الرقم مخصصاً للمشاهدين الراغبين في مكالمة نعيم المقيم داخل الصندوق خلال ذلك الوقت، و الاستفسار منه عن ذلــك الكوليسترول المثير الخطير، لم تمض دقائق إلا وكانت قد أفرغت ما تبقى من قهوتها في جوفها، و المذيعة تقول:

- شكراً على ذوقك و تحيتك اللطيفة يا مدام نانا. نعم .. نعـم .. ســامعة. خلاص. خلاص. انشاء الله إجابة الدكــتور نعــيم ستكون بعد الفاصل الاعلاني فابقوا معنا.

كانــت المذيعـــة قــد قاطعتها دون أن تنتهي من أسئلتها واستفساراتها الموجهة لنعيم المغربي، و مع ذلك بقيت نانا مع ثــلاث بقرات سمينات نظيفات بدوّن و كأنهن في بلهنية من العيش بينما يأكلن العشب من مروج خضراء رائعة لا تظهر عادة إلا في أفلام الكاوبوي، ثم لتظهر بعض ذلك علبة سمن

ذهبية عليها صورة لذات البقرات وصفها صوت نسائي غنوج بأنها سمن المروج التي تجعل للحياة طعماً مختلفاً. بقيت نانا متسـمرة في مطرحها بعد ذلك أيضاً و بناء على "ابقوا معنا" تستابع قطعتين من الجبن الأصفر الطري و قد تمددتا بإغراء على شريحتين من خبز التوست، راحا يقضمهما شاب و فتاة تـرتدي أقل ملابس ممكنة، بينما يتعالى صوت رجولي مرح معلـناً: "مـتعة لا تنتهي". ثم بقيت خمسة دقائق بعد ذلك مع موجـز الأنباء حيث احتل الشاشة مذيع سمين أخنف، خمنت نانا أنه و لابد أن يكون قريباً لأحد المسئولين الكبار في الدولة لأحـد لأولـئك الذين يطلق عليهم الآن رجال الأعمال، و تم تعيينه بالواسطة. راح المذيع يتلو بجدية جملة من الأخبار عن الحـرب المشتعلة في العراق و الصومال و السودان، و كان يعزز ما يتلوه بجملة من مشاهد القتلى و الجرحى و الأطفال المصابين الصارخين، مما جعل نانا تشعر بضيق في أنفاسها، و بـأن دمها يتسارع داخل عروقها حتى صعد إلى يافوخها. فكرت في مغادرة جلستها و الذهاب للبحث عن علبة سجائرها التـي تدخن منها سيجارة أو اثنين كلما تضايقت أو انفعلت،

لكـــنها آثرت البقاء حتى لا تفوتها أية كلمة مما سيقوله نعيم المغربـــي. أخـــيراً ظهـــرت المذيعة مرة أخرى و قد أعادت خصلة شعر نافرة لتستقر على جبينها، كانت نانا قد لاحظت خروجها عن وحدة الصف مع بقية الخصلات قبل الفاصل.

لـــم تفهـــم نانا سبباً لابتسامة المذيعة الواسعة، و سعادتها الـــبادية بيـــنما هي تقدم للمشاهدين نعيم المغربي مرة أخرى لـــيحدثهم عن الكوليسترول، خمنت أن السعيدة لم تتابع نشرة الأخبار، أو ربما حكى نعيم بنفسه لها نكتة عن الكوليسترول خلال الفاصل.

راحت تتابع كلماته و نصائحه لها باهتمام شديد، شعرت و كأنه يتحدث إليها شخصياً دون سواها من كل أولئك الذين يشاهدونه الآن. كان يبتسم ابتسامات هادئة آسرة تبرز أسنانه البيضاء المتراصة، بينما تلتمع عيناه الوسيمتان بذكاء و تبرز ملامحـــه القويـــة المتناسقة، و كأنه إنما خُلق ليطل من شاشة التلـــيفزيون. تمنـــت أن يكون أمامها هنا بلحمه و دمه حيث تجلـــس ليشـــاركها ارتشاف فنجان جديد من القهوة. تحسست وجهها و هي تدقق النظر في وجهه الفتيّ المشدود، خمّنت أن

عمـــره لا يمكـــن أن يـــتجاوز الأربعيـــن سنة بأي حال من الأحوال، فتنهدت بأسى و فكّرت أنها و لابد أن ترتشف فنجاناً آخر من القهوة إضافة إلى ذلك الذي شربته في التو.

فـــي الثامنة من مساء ذات اليوم، كانت تتصل به، و لكن في عيادته الخاصة هذه المرة، كانت تريد أن تفهم على نحو أكـــثر تفصيلاً، كيف يصاب بعض الناس بالكوليسترول دون أن يتـــناولوا أطعمـــة مســـببة له مثلما قال في البرنامج وقت الصباح، لكن الوقت لم يسعفها لتسأله مرة أخرى.

رد عليها هذه المرة، لتدخل كلماته أذنها مباشرة عبر سماعة الهاتف و قال:

- ممـــتاز أنـــك جبت النمرة من دليل التليفونات. طبعاً فاكـــرك و فاكـــر إنك اتصلت في برنامج " كلوا من طيـــبات مـــا رزقـــناكم" الصبح، و لكن لو تسمحي، اتركـــي تلـــيفونك مع السكرتيرة و لسوف أكلمك بعد العـــيادة لأنـــي مشغول جداً و عندي حالات منتظرة بره.

بعــد منتصف الليل بقليل، و بينما كانت تمد الغطاء على جســدها الوحيد، و تتأهب للقراءة في كتاب "لا أنام" لإحسان عــبد القدوس، و هو الكتاب الذي قرأته مراراً و تكراراً دون ملــل أو كلل، و ها هي تعيد قراءته الآن، جاءها صوته عبر الهاتف الموضوع على الكوميدينو بالقرب من وسادتها:

- أنا د. نعيم ... أرجو ألا أكون قد تأخرت عليك، لكن من عشر دقائق بس، خلّصت العيادة.

باغتتها المفاجأة، و قد كانت تظن عندما رن الهاتف أن ابنتها التي تقيم في مدينة أخرى هي التي سوف تتحدث لتسألها: هل تعطــي طفلــتها المصابة بالإسهال كبدة الفرخة أم لا، مثلما اعتادت أن تسألها أسئلة من هذا النوع دوماً.

- د. نعــيم ... أهلاً ... أبداً ... أبداً الوقت بدري و أنا قــاعدة في الأنتريه و فاتحة كتاب أسلي نفسي به قبل النوم.

- آه. طيــب أولاً أنــا سعيد بسؤالك جداً في البرنامج، وســعيد أن شــابة صــغيرة مــثلك مهتمة بصحتها وبموضوع الكوليسترول.

ضحكت بسعادة:

- شابة؟! أنت رائع!

قاطعها:

- و بعدمــا سمعت ضحكتك ... أقول أنك طفلة. طفلة صغيرة جميلة.

ضحكت أكثر:

- يا سلام يا دكتور ...
- فعلاً صوتك جميل، و ضحكتك بريئة ... كأنها تغريد عصافير على شجرة قدام شباكي، أسمعها كل يوم لما أصحى الصبح من النوم.

اهــتزت مشــاعرها بعنف لكلماته، التي صارت منذ تلك اللحظــات و عــبر شهر كامل، لو جمعتها، أقرب إلى كتاب كــامل من الغزل، و هل تنسى كل هذه الأوابد التي قالها لها "الأذن تعشــق قبل العين أحياناً"، "الجمال جمال الروح"، "أنا

وحبيبي روحين في زجاجة" ، وعشرات غيرها كان يسمعها لها و عبر مكالمات طويلة ممتدة بعد منتصف الليل، كل ليلة وبعـد انـتهاء العمـل بعيادته، فتسمع ما لم تسمعه من قبل وتسـمعه طرفاً من حياتها و همومها و هواجسها، فقالت له أنهـا ما شعرت بأي معنى حقيقي لحياتها ذات يوم، رغم كل الرجال الذين صادفتهم و أحبوها، و رغم زواجها من الرجل الـذي فعـل المستحيل كي تكون له فقاطع أهله سنيناً، لأنهم رفضـوا زواجـه منها، بسبب أنهم من عائلة قديمة مشهورة وهي من عائلة متوسطة و أبيها موظف صغير.

في نهاية الشهر قال لها أنه لم يعد يحتمل المزيد، و يريد أن يقابلهـا وجهاً لوجه، يريد أن يتذوق طعم صوتها بعينيه، ويلامس شفتيها بشفتيه، فقد كفر بالتليفونات و الأثير، و أوهام الحـب من خلالها، شعرت أنها في ورطة حقيقية فقد أخبرته أنهـا فـي الثالثة و الأربعين، فقال لها أن أجمل عمر للمرأة يفضله هو بين الثلاثين و الخمسين.

و لكن ... كيف ستسمح له بأن يراها، كيف سيكون الحال عندما يدرك و يكتشف أنها في الثالثة و الخمسين، بل و تبدو

و كأنهـــا في الستين فعلاً، بسبب تجاعيد الشركس الملعونة؟.
وهــل كانت البلاد بحاجة إلى شركس؟. ألا يكفي كل هؤلاء الذين أتوا إليها و احتلوها عبر الأزمنة الطويلة؟.

ظلت أياماً تراوغه و هي حائرة، تارة تقول له إنها تفضل تأجــيل اللقاء وقتاً لأن ابنها سوف يعود من أمريكا في إجازة طويلـــة و لابد أن تكون معه خلالها، و مرة أخرى تقول له أنهـــا ســـتذهب إلـــى ابنتها في القاهرة الشهر القادم، وسوف تتصـــل به عندما تكون هناك لتحدد معه موعداً للقاء، وخلال ذلك كانت قد عزمت و حزمت أمرها لملاقاته مهما كلفها ذلك فشوقها إليه يحرقها و لا يأكلها فقط مثلما يأكله.

ركبـــت القطـــار ذاته الذي تركبه الآن، و ربما كانت قد جلســـت خلال ذلك الوقت على المقعد ذاته الذي تجلس عليه الآن، و توجهـــت عـــندما حطـــت رجلها في المدينة الكبيرة مباشرة إلى أكبر عيادة لجراحات التجميل، و قد أصرت على أن تعـــاكس الزمـــن، و تشـــن حرباً ضده و لا تدعه يهزمها ويخرب بمعاوله ما منحتها الطبيعة من جمال.

كانـــت المطـــربة صباح ملهمتها في ذلك، و معينها الذي يشـــد أزرهـــا كلمـــا ضعفت أو قل حماسها لفكرة التجميل، وكانـــت كلما رأتها تغني عبر شاشة التلفزيون تشعر و كأنها تقـــول لها: "افعليها ... افعليها و لا تخافي، انظري إلي كيف أبدو جميلة و محبوبة من الجميع".

و بـــرغم أنهـــا جـــاءت، إلا أنها ظلت أياماً تقدم رجلاً وتؤخـــر رجلاً حتى وصلت إلى عيادة التجميل، لكن هذا لم يمـــنعها مـــن التفكير فيما سوف يقوله الناس عليها من كلام، وتعلـــيقات أبـــنائها علـــى ذلك خصوصاً ابنتها التي تحجبت ولبست الطويل المجرجر، و التي طالما انتقدتها لأنها مازالت تلبس الفساتين و الجونلات القصيرة التي تصل إلى منتصف الساق فقط، و لكن ها هي إرادة المحبين تنتصر.

أجـــل إنها إرادة المحبين، فما أجمل أن يكون المرء محـــبوباً مـــرة أخـــرى، و أن يجد ذراعاً حنونة تلتف حوله وتضـــمه إلـــيها؟. و ها هي تجلس في غرفة الإنتظار ريثما يســـمح لها بمقابلة الجراح، و إلى جانبها تجلس أمرأة أخرى تبدو عليها ملامح الحزم و القوة.

أشعلت المرأة لنفسها سيجارة و استدارت لتقول لها:

- هل السجائر تضايقك؟.

ردت نانا بسرعة:

- أبداً ... أنا أدخن أحياناً.

قدمت لها جارتها سيجارة، لكنها أعتذرت عنها و قالت:

- لا ... ليس الآن.

كانت ليس الآن، فاتحة لحديث طويل ممتد بينهما، حكت لها خلاله عن كل ما حدث بينها و بين نعيم المغربي، وورطتها الخاصة بملاقاته، استمعت جارتها إلى حكايتها وكأنها تسمع إحدى حكايات الهنود الحمر القديمة، و قالت لها أنها صاحبة مصنع تعليب خضراوات و فواكه انشأته بعد أن خلعت زوجها و تنازلت له عن كل مستحقاتها المالية لتنهي عشرين سنة من الذل معه، لأنها لم تنجب له طفلاً ذكراً، وأخلفت له بنتين توأم، اضطرت لاستئصال رحمها بعد ولادتهما بقليل، ثم إنها بدأت تواجه الحياة بعد ذلك برأس مال صغير ورثته عن أبيها المتوفي، وقد باتت الآن سيدة أعمال مرموقة تطمح لتوسيع نشاطها في أفريقيا و منطقة الخليج

العربــي، لذا فهي في هذا المكان الآن أملاً في تصغير أنفها وتحسين شكلها، لأن المظهر ضروري جداً في دنيا الأعمال وخاصة للنساء، و لأن منافسيها يتزايدون في السوق يوماً بعد آخر، ثم قالت لها في النهاية:

- تشــدين وجهك و تزيلي التجاعيد عنه بخمسة عشر ألــف جنيه من أجل واحد رجل؟. حرام عليك، أنت غــريبة جداً؟. لماذا لا تستثمرين فلوسك في مشروع تتكســبي منه؟. لا يوجد رجل يستحق أن تدفعي كل هذه الفلوس لأجله يا عزيزتي.

ظلت كلمات سيدة الخضار المعلّبة تتردد في أذنيها طوال الوقت، حتى عندما دخلت إلى الطبيب ليجري عليها الكشف، كانــت العملــية ستتكلف ستة عشر ألفاً من الجنيهات وليس خمســة عشر ألفاً، وها هي تعود بعد شهر لتجريها، وتجلس فــي القطار إلى جانب النافذة، و لكن ليس لأجل أن تستثمر أمــوالها فــي الســوق و ليس لأجل نعيم المغربي أو غيره، ولكنها، وكانت قد قررت ذلك بعد تفكير طويل وأخذ ورد مع نفســها، وتأمــل عمــيق لحياتها الماضية وعلاقتها بزوجها

الـــراحل. ســـتفعلها لأجل أن ترى وجهاً جميلاً طالما أحبته وتمنـــت أن تراه كلما طالعت نفسها في المرآة، قوياً، مشدوداً مـــثلما كـــان، ثـــم أنهـــا أغمضت عينيها أكثر على البستان الأخضـــر، و بـــدأت تحلـــم حلماً تداخلت فيه صور المروج الخضراء و مياه النهر مع صورة وجهها القديم الجميل.

يا حسين

بنطلون كستور خفيف كالح اللون، و شبشب بلاستيكي كبير تتشبث به أصابع قدمه النحيلة، و ما لا يزيد عن خمسين سنتيمتر طولاً، و ذلك الوجه الضامر، الباهت بنظراته الجامدة، كانوا جميعاً دافعي لأن أسأل:

- عنده كام سنة يا أسطى؟.

رد أبوه الأسطى دون أن يترك ما بيده أو يعيرني التفاتاً، قال بينما مسمار بريمة مازال مأسوراً بين أسنانه:

- عشرة. شهرين و يصير عشرة.
- يا خبر، شكله يستحيل أن يزيد عن ستة، يظهر أكلته ضعيفة جداً.

ثم توجهت إلى الولد قائلة:

- كُل يا بني خليك تكبر و تطول.

رمقني الصغير بنظرات صارمة، قاسية نوعاً ما، بما لا يتناسب مع حجمه أو سنه، مما أربكني قليلاً، و لم يرد، بل

مط شفتيه قليلاً، و كأنه ممتعض من أمر ما، و رفع يده و هو يشبّ على أطرافه ليناول أباه الواقف فوق السلم الخشبي مفكاً كبيراً، و ما أن صار المفك في يد الأخير حتى صرخ غاضباً:

- القلاووظ، قلت لك المفك القلاووظ يا حمار.

سارع الولد بالانحناء على صندوق حديدي استباحه الصدئ وقلب فيه حتى يجد القلاووظ و يعطيه لأبيه بينما قلت:

- داخلة أعمل لك شاي يا أسطى، و أجيب لك ساندوتش يا ... هو أنت أسمك أيه ....
- حسين، رد بسرعة مقاطعاً إياي و دون أن يضيف شيئاً.
- حسين، طيب. أعمل لك ساندوتش جبنة رومي يا حسين والاّ عاوز حلاوة طحينية؟.

جاءني الرد هذه المرة من فوق السلم:

- لا هو صايم.
- صايم؟ هو أنت نادر ندر يا أسطى؟، قلت.
- العشرة الأولى من وقفة عرفات، شفاعة.

- لكنه صغير على الصوم يا حاج، قلت.
- لا من سنتين وهو معتاد على الصيام، صام رمضان كله من أول عام أول.
- آه.

تنهدت و سكتّ، و كنت قد بدأت أشعر بقشعريرة تعتريني و ريح طوبة الباردة تهب مستخفة بأوراق شجرة الكافور الضخمة المقابلة لعمارتنا، بينما ثلاثتنا نقف في الشرفة البحرية و الأسطى أبو حسين يمد أسلاك الطبق الفضائي اللاقط لأحوال الكون و متغيراته إلى بيتنا، فكرت بالهروب إلى الداخل و إغلاق باب الشرفة عليهما و الاحتماء بدفء البيت، لكن آذان الظهر كان قد انطلق من ميكروفون المسجد القريب، فنزل الرجل من على السلم و بادرني قائلاً:

- لا مؤاخذة، نستأذن نروح الجامع و نصلي الظهر.

غادرا المكان سوياً، ليعودا بعد نصف ساعة، كان لهاث الكبير يتلاحق و الصغير يسعل سعالاً جافاً خشناً عندما فتحت الباب لاستقبالهما مرة أخرى. حاولت أن أكون لطيفة فقلت للولد:

- خُــذ نفســك، السلم عال، السادس طلوعه صعب من غير أسانسير لكني تعودت عليه من عشر سنين.

همهم الكبير:

- الحمد لله على كل شئ.

ثم دلفا إلى الشرفة الفسيحة مرة أخرى.

كانت الشمس الشتوية المترددة طوال ذلك اليوم قد غابت، مــنذرة ببرودة أشد، فكرت أن آتي للولد بشئ قديم من هدوم أبنــي ليلبسها و تدفئه قليلاً، كنت خجلة من الاقدام على هذا الأمر دون استئذان الأب، فتلمست الأجواء بقولي:

- و أنت يا حسين غبت من المدرسة من أول اليوم؟.

لم يرد الصغير و كان منشغلاً بفك بعض الأسلاك المتشابكة بينما أجاب أبوه:

- حســين تــرك المدرســة من سنة فاتت، لأن نظره ضــعيف و المُدرّسة حطته في مطرح بآخر الصف وكــان عاجز عن شوف السبورة، و حاولت كذا مرة أن أفهمهــا و تجعله يبقى قدامها في أول دكة، و لكن كلامــي معها كان بلا فائدة، ثم أني فهمت من خفير

المدرســـة أنها عاوزة حسين يبقى عندها في الدرس الخصوصي بعد المدرسة.

- طيـــب أعمل له نظّارة، لازم الولد يحط نظّارة على عينيه.

- عملت له نضارة مرتين و كسرها، و الجماعة عندنا صـــعبة بعـــض الشيئ، قالت: كفانا مصاريف، أصل حســـين أمه ماتت من مدة، و تركت بعد موتها عيّلة فوقه و واحد تحته، و الجماعة تولتهم طبعاً و خلفت منـــي عيّل بعد موت أم حسين، يعني تربية الأربعة صارت حمولة عليها، و عبء في المصاريف، و أنا رجل على باب الله يوم شغل و عشرة لا، لذلك تركته المدرسة و هو معي في الصنعة و الحمد لله.

قال ذلك بهدوء و هو مستمر في تثبيت السلك الكهربائي الأسود السميك على جدار الشرفة بمسامير صغيرة الأطراف، و لـــم أعـــرف بماذا أرد على ما قاله، فسكتُ، و ذهبت إلى غـــرفة الأولاد فطالعتنـــي صورة أبني و هو يبتسم أبتسامة جمـــيلة و يحتضـــن كرة ضخمة عندما كان في السادسة من

عمـــره، ممـــا جعلني أهمس لنفسي، حامدة الله، شاكرة نعمته علـــيّ. قلبـــت فـــي الدولاب و أخرجت منه بنطالاً قديماً من المخمـــل المضلع، كان قد ضاق على أبني الأوسط، و سترة صوفية لم تعد تستوعب حجم الصعير النامي سريعاً، ثم ذهبت بهما إلى حسين.

- حســين، تعالى يا حبيبي، ألبس البلوفر لأن الدنيا برد و جرّب البنطلون، أظن أن مقاسه على قدك تمام.

رد حسين بخشونة:

- لا، شكراً، عندي هدوم.
- أنا عارفة لكن الدنيا برد خالص.
- لا أنا حران.
- الجـــو يـــا حسين برد و الممكن أن الكحة تزيد عليك وصدرك يتعب، قلت.

رد أبوه بسرعة:

- خذ يا ولد "الشرز" من الست و ألبس البنطلون و بطّل إمارة و قُل لها متشكر.

أقتربت منه، حاولت مساعدته و إلباسه البلوفر، لكنه أبعد يدي عنه بهدوء و بدون أن ينطق، و بدا لي في هذه اللحظات و كأنه رجل عجوز، عجوز جداً و قد تقمص شخصية طفل.
رحت أفكر، و قد أشحت البصر عنه لئلا يشعر بأنني أراقبه و هـــو يرتدي السروال، بينما كان الأب خلال ذلك ينزل من عليائه الخشبية بحذر و هو يقول:

- ألـــبس بســـرعة خليــنا نروّح، و ألحق الوضوء قبل صلاة العصر.

كنــت قد أسندت مرفقي على الشرفة و أخذت في التطلع ببصـــري بعيداً بينما يتناهى إلى سمعي وقع أقدامهما و هما يغـــادران الشـــقة، و كانت مجموعة من الأطفال قد خرجت لـــتوها مـــن المدرســـة الفرنســـية القريبة من مسكني و هم يتصـــايحون بمـــرح و صـــخب، و وجدتني أتأمل وجوههم الموردة و ملابسهم النظيفة المعتنى بها، فخرجت من صدري تنهيدة حارة، و وجدتني أهمس: يا حسين، يا شهيد.

حديث من خبر الهناء و الشفاء

أعـــرف أنكم عندما تمرون بجانبي، سوف تتأففون، وترســـلون تجاهي نظرات مستخفة مستنكفة، تجعل خطواتكم تتســـع مبـــتعدة ســـريعاً، و كأني قذارة بشعة سوف تصيبكم وتدنســـكم لـــو افتربـــتم منها أو لامستوها. الحقيقة هي أنكم حمقـــى، مغرورون، تظنون أنكم تعرفون كل شيء عن هذه الدنـــيا، و تعرفون عني الكثير، لكن الحقيقة هي أني أعرف عـــنكم أكثر مما تعرفون عني، و أدرك تماماً، أنني لو كنت هناك، في مكاني الأول حتى الآن، حيث ولدت و عشت أجمل سنوات طفولتي و صباي، لكان شأنكم معي مختلفاً الآن، فلابد أنكـــم ســـوف تتودون لي، وتلاطفونني، بل و تربتون على رأســـي بمودة و حنان، و ربما رغب بعضكم في أخذ صورة تذكارية إلى جانبي كذلك.

عمومـــاً، لم يعد يغضبني سلوككم تجاهي، فأنا أشفق عليكم، لأنكم أشقياء مثلي تماماً، هنا في هذا المكان الموحش

علـــى رغـــم صـــخبه و ضجيجه المستمرين، ربما تعاودكم الأحـــلام ذاتهـــا التي تراودني، في أن يرجع الزمن يوماً إلى الـــوراء، فـــأعود إلى ما كنت عليه هناك، حيث كنت أجري وأمـــرح و أفرح، مستشعراً متأملاً جمال الدنيا و الكون الذي لا يمكن أن يُلحظ هنا أبداً.

أنـــتم يا من تمرون بجانبي سريعاً و تتحاشونني، لا تعرفون كم كنت جميلاً، فتياً في صغري، إن ذاكرتي مازالت تسعفني بالمشاهد الأولى لحياتي، حيث ولدت ذات فجر، كما أخبرتنـــي أمـــي، تحت سماء باذخة الزرقة، بالقرب من حقل برســـيم رائع، هل رأيتم حقل برسيم؟. أظن أن كثيرين منكم ممن ولدوا و عاشوا حياتهم هنا لم يروا في حياتهم يوماً حقلاً للبرســـيم، و لم يمتعوا نظرهم، بذلك البساط الأخضر المكلل بقبعات صفراء صغيرة لا حدود لها من زهوره الرقيقة الفاتنة عـــند حلول الربيع. لقد اختلطت أنفاسي الأولى بطراوة نسيم الصـــباح، و عبق الحشائش الندية، و من يومها عشت سنيناً هناك، طليقاً مفعماً بالحرية، آكل من الأرض وجبات طازجة ليست سريعة و ليست محفوظة مثلما تأكلون أنتم هنا، و وقتها

كنت أعرف كل الوجوه حولي، فهذا وجه صاحبي الأسمر ذي العينيــن الداكنتيــن، و هــذا وجه ابنه الكبير صاحب الأنف الأفطس الصغير، أما هذا الوجه فلابنته الكبرى ذات الجدائل الطويلــة، و هي التي تجلب معها الطعام عندما نكون جميعاً فـــي الحقــل، أمّا الإبنة الأخرى، فقد حملت لها على ظهري مــراراً و تكراراً الكثير من حاجياتها، عندما كانت عروساً، تفرش بيت زيجتها الجديد.

هناك، كنت أعرف الطريق وحدي، و دون حاجة إلى إرشـــاد أو توجيه من أحد، كان يكفي أن يشير صاحبي بيده إلـــي، أو يربت على فخذي تربيتة رقيقة، و نحن بالحقل، فما ألبث إلا أن أسير آيباً إلى الدار، حيث أبيت إلى جانب البقرة و الخـــروف و الجدي صديقي، الذي يعرف عن الدنيا الكثير بسبب نطه هنا و هناك، فنظل نتسامر طوال الليل، يحكي لي عـــن ســـذاجة صاحب البيت الذي يظن أنه قادر على الإتيان بواســطته بأفعال السحر بسبب جلده الأسود الغطيس و قرنيه الطويلين. كان أصدقائي هؤلاء، الذين أبيت معهم من أطيب من عرفت هناك، و قلما كنا نختلف أو نتشاجر، لكن ما آلمني

ألمــاً مازالــت مــرارته في حلقي، هو أنهم ذبحوا صديقي الخروف ذات يوم، ذلك الذي لن أنساه ما حييت.

كنت هناك فتياً، أتمتع بصحة جيدة، و هل يمرض من يتنسم عبير الحقول؟. لكن دوام الحال من المحال، و كل حال يــزول، فقــد هــبط إلــى حيــث أعيش رجلان من بعيد، واصطحباني إلى هنا، بعد أن تخلى عني صاحبي مقابل جعل من المال، و من يومها و أنا في شقاء مقيم.

كــنا قــد وصــلنا مســاءً بعد تعب و مشقة إلى هذه المديــنة، حيث أعيش الآن، و ما أن وقع نظري عليها حتى أصــبت بالرعب. كانت البنايات العالية، و الضجيج الذي لم أفهــم له ســبباً، و كــل تلك الأصوات الغريبة هي أول ما اســتقبلني هنا، في البداية ظننت أن هناك رعداً أو أن السماء غاضــبة و ســوف تــتهاوى علــى الأرض بعد أن تعطس عطساتها القوية التي يهطل منها الرذاذ على رأسي. انتظرت قليلاً بينما الأصوات تصم أذني، لكن الرذاذ لم يسقط، و بينما كنت أنظر فجأة و أنا أسير، إذ وجدت إلى جانبي كائناً ضخماً جداً، لم أر مثله من قبل، يجري بسرعة هائلة، دون أن تتمكن

قوائمـــي القويـــة من ملاحقته أو إدراكه، كان له ثمانية قوائم مستديرة سوداء و عينان خضراوان في الأمام ومثلهما أصغر فـــي الخلـــف. كـــان هـــذا المخلوق الغريب هو الذي يصيح ويزمجـــر، و فجأة لم أقو على تحمل المزيد، بل وكدت أبول علـــى نفسي، إذ لاحظت أن اللون الأخضر لعينيه، قد تحول إلـــى اللون الأحمر الملتهب، فتعثرت خطواتي و كدت أسقط مغشـــياً علـــيّ لـــولا سوط عنيف لامس ظهري و ألهبه بنار استتشـــعرتها تتدلع بجسدي اندلاعاً، و تدفع خطواتي دفعاً إلى الأمام.

اكتشـــفت بعـــد أيام من وجودي هنا، أن هذا المكان الجديد، مليء بعدد هائل من المخلوقات المرعبة الأخرى التي لا تكف عن الزمجرة منذ وصولي، و بدأت ألاحظ أن الناس يهرولون مسرعين لاهثين و كأنهم يهربون من طوفان وشيك، غـــير أن أفظـــع ما في هذا المكان، و الذي لم أستطع تحمله حتى الآن، تلك الروائح البشعة ذات اللون الأسود و الأزرق، و التـــي أشمها و هي تنطلق طوال الوقت من مؤخرات هذه الكائنات الغريبة، و لا أدري كيف يطيقها الناس هنا؟. كيف لا

يـــأبهون لها و يواصلون مسيرهم اللاهث، غير مبالين، على رغم أنهم يتنفسونها طيلة الوقت؟.

عمومـــاً، لم يكن هذا كل شيء بالنسبة إلي هنا، فلقد كـــان أكثر ما صدمني هو غياب الألوان، و خصوصاً اللون الأخضـــر الذي أدمنت عيناي معانقته طيلة الوقت، و هو ما لم يصادفني هنا إلا لماماً و قد تناثر قليلاً على هيئة شجيرات هـــزيلة نحـــيلة، تتبدى بين الحين و الحين على الطريق، بل وتـــبدو و كأنهـــا رماديـــة لكـــثرة ما تراكم عليها من أتربة وأوســـاخ. كنت أتأملها و أتحسر متنهداً على ألوان الأخضر التي لا تحصى و تتمتع عيناي بمرآها كل يوم، أخضر أشجار الـــتوت الزاهي، و أخضر السنط الوقور، و أخضر الكافور الرقـــيق، و أخضر الزيزفون، و أخضر البرسيم الصاخب، وأخضـــر الـــذرة و الفـــول، و أخضر القمح السخي قبل أن يتذهـــب و يحـــول الغـــيطان إلـــى بحيرات ممتدة من التبر المسكوب، و كل ما يعجز لساني عن عده و ذكره.

لم يكن هذا وحده، هو سبب ألمي و مأساتي، منذ أن انتزعت من هناك، و جاؤوا بي إلى هنا، لكن الطامة الكبرى،

التـــي بدأت أعيش فيها منذ ذلك الحين، كانت عندما ربطوني هـــنا ذات صباح إلى عربة صدئة من الصفيح القذر، صارت وكأنها قدري المحتوم، إذ كان يتوجب عليّ أن أجرها كل يوم مـــنذ بدايـــة الصـــباح وحتى غروب الشمس، أدور بها في الشـــوارع و الأزقة، يقودني معها صبي سخيف، فنمر على البـــيوت لجمـــع الأوساخ و الأزبال، التي لا أعرف من أين يـــأتون بها حقاً، فهي بكميات هائلة و ذات روائح عفنة، كنت و مازلـــت استشـــعر الغثيان حين أجر العربة الممتلئة بها .. العـــربة التي تجعلكم تتأففون مني و تبتعدون عني، موسعين خطاكم، كلما صادفتموني أجرها على الطريق.



حبيبتي فيرا

تعرفت على فيرا بعد وفاة أبي بقليل. كانت أمي قد ذهبت إلى صاحب السينما التي عمل أبي بها كبلاسير لسنوات طويلة، يرشد الناس إلى أمكنة مقاعدهم في الظلام، و رجت ذلك الأصلع النحيل ذي الأصابع الصغيرة أن يلحقني بوظيفة ما بالسينما عوضا عن وظيفة أبي المتوفي، إذ باتت عائلتنا الكبيرة بلا مورد على الإطلاق، و أنا أكبر من فيها من الأبناء، و قد حصلت لتوي على شهادة الثانوية العامة بمجموع متواضع لا يؤهلني لدخول الجامعة أو أي معهد على الإطلاق.

بدت فيرا لي، و للوهلة الأولى منذ أن تعرفت عليها و كأنها امرأة مختلفة عن كل النساء اللواتي أعرفهن، كانت تضع مساحيق كثيفة على وجهها تناسب ممثلة مشهورة ستظهر للتو على خشبة مسرح أما شعرها فقد استمر ومنذ أن رأيتها مصبوغاً بلون أصفر فاقع، وهي ترتدي دائما فستاناً

قصـــيراً بكميـــن يسفر عن أكبر مساحة ممكنة من ذراعيها الممتلئتيـــن، و الحقيقة فإن فيرا كان يصعب وصفها بالجمال، و الأنســـب القول أنها حسنة المظهر و هذا تعبير ذكي يحل مشـــكلة توصـــيف امرأة خمسينية راقية ليست بالدميمة و لا بالجميلة.

و منذ أن تعارفنا و بينما كنت أمد يدي لمصافحتها، أظهـــرت فـــيرا لـــي لطفاً و نوع من التعاطف شجعني على الاقـــتراب مـــنها، بعد ذلك و الدخول في مجال صداقة معها هيئتها ظروف العمل، إذ كنت أجلس بمحاذاتها أمام شباك بيع الـــتذاكر للجمهور، و كنت في بداية عملي لا أخلو من حيرة وإرتباك، ويبدو أن فيرا أدركت أنها المرة الأولى التي أخرج فـــيها للعمل، تاركة دنياي الصغيرة الضيقة ، إلى عالم أوسع سوف أتعامل فيه مع صنوف شتى من البشر، فكانت تشجعني و تبـــتلع أخطائـــي بإعتـــبارها المشرفة الأولى على عملي، وتصـــر علـــى إطـــراء أدائـــي أمام صاحب السينما و بقية العاملين.

كانت مختصة ببيع تذاكر الترسو و مهمتي بيع تذاكر البلكون و اللـــوج، و بالطبع كان زبائني أرقى اجتماعياً و عددهم أقل من زبائنها الذين كان جلهم من فقراء المدينة و لا متع متاحة لهم إلا الدخول إلى تلك القاعات المظلمة التي تدخلهم بدورها إلـــى عالم سحري وثير و مثير لا يمكن لأمثالهم أن يعيشوه يوماً قط.

و يوم بعد آخر كنت أتقارب مع فيرا و قد بدت كنوع مـــن العـــزاء لي في الحياة، فهي من النوع المرح، البشوش تتعامل مع الحياة ببساطة على عكس مني ، فقد كنت أشعر أن عدم إكمال تعليمي العالي مأساة كبرى، و بقيت أندب حظي طـــيلة الوقـــت بسبب موت أبي السريع بعد مرضه القصير وإضـــطراري للعمل لإعالة عائلتنا، لكن فيرا ظلت تشجعني على تجاوز محنتي، و كان الوقت المتاح لنا لتبادل الكلام لا بأس به خصوصاً عندما ننتهي من بيع التذاكر و نضع يافطة "كامل العدد" عند مقدمة شباك الحجزو يكون الفيلم المعروض بالسينما من النوع المثير الجاذب للجمهور. أحياناً كنا نقتنص

الفرصـــة و نتـــبادل الحديث أيضاً عندما يبدأ عرض الفيلم، ويقـــل طلب التذاكر من الجمهور في حالة الأفلام العادية أو الرديـــئة التي يقبل عليها عشاق يرغبون بظلام ساتر لقبلاتهم المحمومـــة، أو أنـــاس ضـــجرون يائسون ضارعون لوهم وخيال ينتشلهم لمدة ساعتين أو أقل إلى ضفاف عوالم أخرى أقل وطأة و أكثر جمالاً.

مـــن حسن الحظ أن طريقي إلى البيت و طريق فيرا إلى مسكنها كانتا متوافقين، فكنت أخرج معها من السينما بعد انـــتهاء عملنا و نسير حتى نصل إلى إحدى العمارات القديمة بميدان روكسي حيث تسكن في شقة صغيرة بالدور الأرضي، ثم أواصل مسيري إلى بيتنا في الحي الشعبي بسراي القبة.

أثـــناء الطريق، كانت فيرا تحكي لي عادة عن ابنتها الصغيرة فيرا، و كانت تبدأ كلامها عادة بعبارة: حبيبتي فيرا، أو عزيزتـــي فـــيرا، ثم تواصل: لقد طبخت لها في الصباح الـــباكر و قبل أن آتي إلى السينما صينية مسقعة، فيرا تحب المسقعة و تموت فيها خصوصاً مع سلطة الزبادي. أو كانت

تتوقف فجأة عن المسير و تقول: ياه، نسيت أغسل لفيرا بلوزتها الحمراء و أنشرها. عندها رحلة بكرة مع المدرسة وهي تريد أن تلبس البلوزة الحمراء و تتصور مع زملائها بها.

و كلما توطدت علاقتي بفيرا يوماً بعد يوم، كلما بت أعرف أشياء أكثر عن فيرا الصغيرة، لون عينيها العسلي الداكن الشبيه بلون عيني أمها و أنفها الدقيق الجميل الذي تصفه فيرا بإرتياح قائلة:

- الحمد لله أنها أخذت أنف جدتها ولم تأخذ أنفي.

و كانت محقة إلى حد ما في ذلك، فأنف فيرا لم يكن جميلاً على الإطلاق فهو ضخم ممتد و يقتحم طرفه حافة شفتها العليا و يبدو كأنف قائد عسكري روماني قديم خليق بوجه غير وجه فيرا الطيب الصغير.

و كنت اسألها: و لكن لماذا يا فيرا، أنت اسمك فيرا، و ابنتك اسمها فيرا؟ من قلة الأسماء في العالم يعني.

كانـــت تــرد في ارتباك و ضيق و تزفر قائلة: أبوها كان يحبني جداً و تمنى أن تكون ابنته مثلي، الله! لقد أفهمتك ذلك أكثر من مرة.

ثـــم تبتسم برضا و قد شعرت انها اقنعتني و نواصل المسير..

فــيرا يونانية الأصل، هاجر أبوها و كما علمت منها إلـــى مصر زمن الحرب العالمية الثانية و هي ولدت بمصر الجديـــدة حيث عاش والدهاوعمل كحلاق و بعد وفاته و قيام الثورة هاجر إخوتها جميعا إلى امريكا و بقيت هي في مصر مع أمها و رفضت الهجرة أو كما كانت تردد دوماً كلما حكت لي هذه الحكاية: " قلت: لا.. لا.. فيرا خلاص صارت في المدرســـة هنا في مصر و شغلي أنا هنا في مصر و أنا لا يمكن أكون بعيد عن مصر. لا هنا حلو. كله حلو."

لكـــثرة كلامها عن فيرا، طلبت منها أن تحضرها معها إلـــى السينما، أو تريني صورتها على الأقل، لكن فيرا كانت تنجح دوماً في تجاهل طلبي البسيط هذا أو توعدني قائلة:

أوه.. سـوف أحضـر لك صورتها عندما أصورها صورة جديدة، لأن القديم كله فظيع، فظيع خالص و هي حلوة جداً

ثم تواصل كلامها قائلة:

فـيرا نامـت امبارح بدري لأن بطنها كان فيه مغص و هي تعبـت و أنـا قلـت لها لأنك أكلت آيس كريم و الدنيا برد. صارت لا تسمع الكلام و أنا زعلانة خالص.

كنـت عـادة أطيـب خاطـرها عندما تقول ذلك أو تصـرح لي بمشاكلها مع فيرا و أقول لها أن ابنتها مازالت طفلة صغيرة و الأطفال في هذه السن لا يمتثلون للنصائح، ثم أبـدأ في قص مشاكل أمي مع إخوتي الصغار حتى تستريح وتهـدأ، و أذكـرها بضرورة إحضار فيرا معها إلى السينما لأراها..

لكن فيرا الكبيرة لم تحضر في أي مرة فيرا الصغيرة إلـى السـينما أبـداً ولم تريني صورتها الجديدة أو القديمة، وكانت ذرائعها غريبة، و غير مقنعة بالنسبة لي دوماً"الصورة الجديـدة ضـاعت" ، أو" فـيرا رفضت الحضور معي، هي

مكســوفة من الناس في السينما"، أو " بكرة إن شاء الله تكون هنا"، و كان بكرة هذا لا يأتي أبداً

خــلال ســنوات عدة عملت فيها مع فيرا يوماً بيوم وساعة بساعة في سينما نورماندي، تعرفت على أدق تفاصيل حــياتها مــع فيرا، ماذا أكلنا، و ماذا شربنا، و الأفلام التي تفرجــنا علــيها معاً أمام التلفزيون، و كنت أعرف أن فيرا الصغيرة تحب الجلوس على الفوتييه، بينما تتمدد أمها قبالتها على الكنبة و يتناولان العشاء خلال وقت الفرجة هذا، و كنت كثــيراً ما أتدخل لفض منازعات حادة تنشب بينهما، ناصحة فيرا الكبيرة بالصبر، فهي ابنتها الوحيدة، و هي كل عائلتها، ثــم في النهاية فإنها مازالت طفلة صغيرة لا تعي الحياة جيداً فلا داعي لإغضابها.

ما كان يلفت نظري دائماً، و يجعلني أتحير كثيراً في أمــر فــيرا مع فيرا هو أن زميلتي فيرا كانت تبتاع لأبنتها الأحذيــة بالمقــاس ذاته و كذلك الفساتين رغم مرور الأيام والسنوات على معرفتي بها.

و حـــتى عندما كانت تقول لي " فيرا سمنت خالص، وصـــارت تأكل شيكولاتة و حلويات كثيرة، و أسنانها باظت وسوســت" فإنني كنت ألاحظ إصرارها على شراء الملابس بـــالحجم ذاتــه و الاحذية بالمقاس القديم ذاته رغم أن "فيرا سمنت خالص".

ذات صباح توجهت إلى عملي في السينما و قبل بدء عـــرض الســاعة العاشرة صباحاً، و ما أن دلفت من مدخلها الواســـع إلـــى غرفة المدير لأوقع في دفتر حضور العاملين، حتى وجدت الجميع هناك، متحلقين حول الرجل ذي الأصابع الصـــغيرة، كــانوا جمــيعاً متجهمين، و عم عارف جرسون البوفيه و الذي طالما تمازح مع فيرا أثناء تقديمه المشروبات و الساندوتشــات لــنا في غرفة حجز التذاكر، تسح دموعه وينهنه، كان هناك حسن و عبد المنعم المكلفان بنظافة الصالة و عــبد العــال البلاسير الذي حل محل أبي و قد بدوا جميعاً غاية في التأثر.

صاح عم عارف بمجرد أن رآني:

فيرا تعيشي أنت يا آنسة فادية.

ضربت على صدري و قلت :

يا حبيبتي!

آه. الصبح عرفنا. واحد قريبها. رجل كبير أتصل بالأستاذ سالم و أبلغنا الخبر، ماتت إمبارح فجأة في شقتها.

و فيرا. فيرا ابنتها الصغيرة المسكينة؟.

تبادلوا النظرات جميعاً في دهشة، و رفع عم عارف حاجبيه الكثيفين عالياً فبدا و كأن غرابيين صغيرين أسودين حطا على جبينه فجأة قبل أن يقول مستنكراً:

بنتها؟. فيرا كانت آنسة يا آنسة. عمرها ما دخل عليها رجل،أنا أعرفها من يوم ما حطت رجلها في السينما، أبوها الخواجة يني ميخائيليس كان حلاق الأستاذ سالم و هو عارف عنها و عن عائلتها كل شيء.

رد الأستاذ سالم في أسى حقيقي:

طبعاً عمرها ما تجوزت أبداً.

قلت: آه..

و انخرطت في بكاء مرير.

حكاية أخرى لبيدبا الفيلسوف

يروى أن بيدبا الفيلسوف خلف - عندما مات - من الأولاد عشـــرة، و أن نسل هؤلاء لم ينقطع من الأرض حتى يومـــنا هـــذا، و حكى أن أحد حفدة أحفاده سمع حكاية روتها جدته عن جدودها فقال:

زعمـــوا أن أرنباً يعيش في أجمة من الأجمات ورد نبع ماء يقـــع على طرف من أطرافها ليشرب و يطفئ ظمأ عطشه، فوجـــد عندها زرافة تتبعها رألَ لها و واحد من حُمر الوحش يطلـــبون جميعاً ما طلبه، و بعد أن ارتووا و هنأوا و سكنت نفوســـهم شكت الزرافة خوفها على صغيرتها من أن يلتهمها الأســـد و تضيع منها لأن ساقيها مازالتا ضعيفتان لا تقويان علـــى العدو، و قالت أنها لا تعرف إلى أين تفر أو تذهب في هـــذه الأجمـــات الواسعة التي يجوبها الأسد و النمر و كافة صنوف المفترسات، فتنهد الأرنب و مصمص شفتيه متصعباً و قـــال - أو تظنين أن الخوف يأتي من الأسد و النمر و ما

شابه من سائر آكلات لحومنا المعروفين، ألا ترين أن هؤلاء بيّنيــن معلوميــن، قد نستطيع التغلب عليهم بالاختباء و الفر والســعي للــرزق بعــيداً عن أعينهم؟، ولكن ما بالك بالدود والسوس الذي انتشر في هذه الأجمة و بات يلتهم و ينخر كل مــا هو أخضر و يابس، حتى و حسب ظني لن نجد يوماً ما نأكله من عشب و ورق، فالأسد ترينه مرأى العين و تحسينه بالغريــزة و تشــمينه عــن بعد، أما ذاك الذي لا ترينه و لا تستشعرينه فالخوف منه أعظم، فرب عدو لا يُرى أشد خطراً مــن عــدو لا تضــيعه العيــن، و ظــل جميعهم يتداولون ويــتجادلون بيــن أخذ و رد فالزرافة ترى أن الأسد و النمر ومــن على شاكلتهما أخطر و أفتك، و حمار الوحش يؤيدها بينما يعارضهما الأرنب و يقول للزرافة أنها لا ترى ما يرى لأن رقبــتها عالية لا تنولها رؤية إلا البعيد العالي، بينما هو يــدب قريــباً مــن الأرض فيستطيع رؤية كل صغير حقير، وظلــوا علــى حالهم هكذا حتى قاربت الشمس على المغيب، وبينما هم مستمرين فيما بدأوه إلا و قد تعفرت الأرض بغبار شديد أعقبه هلول وحيد القرن إلى المكان فقال الأرنب:

- و هـذا القادم لعمري، لأشد خطراً من الأسد فهو لا يـرى و يفـتك عـدوه بقرنه كالمجنون بينما يدوس حشائش الأرض و يحطمها بقدميه الغليظتين، فالأسد و على الأقل، لا يأكل إلا عندما يشتد به الجوع، أما هـذا الغبي الغشوم فلا يعرف للقتل سبباً و لا للفتك مأربـاً، فانظروا في أي عالم نحن نعيش و كم لدينا مـن صنوف الأعادي بين ضخم و صغير و عظيم وحقير.

قال حمار الوحش:

- سأذهب إلى الأسد بنفسي، لأشتكي له الدود والسوس ووحيد القرن، فكما قلت يا صديقي أن الأولين أعداء غير مرئيين لا يمكن أن يعرف الأسد بهم، أما وحيد القرن فلعله غافل عما يفعله بحشائش الغابة و إتلافه لها.

نصحه الأرنب قائلاً:

- هل جننت أيها الأحمق؟، أتذهب بنفسك إلى ذلك الذي لا يرحم و لا تدخل قلبه الشفقة علينا و هل سيشفع لك

مـــا تقوله له من نصيحة، أو تظن أنك بتأليب العدو علـــى العدو، سيرتد إليك أحدهما صديقاً؟، ما أنت إلا أحمـــق مغرور هالك فالوحش لا تدفعه إلا المصلحة، ولا يؤله إلا المنفعة، و أنت هالك لا محالة فما تقوله يدلّ على أنه لا حنكة لك ولا معرفة بطبائع الوحوش وغدرهم المألوف على مر الزمان.

لم يتدبر حمار الوحش ما قاله الأرنب و ذهب يجري إلى حيـــث عريـــن الأسد، بينما توارت الزرافة و الأرنب خلف الأشـــجار مفسحين الطريق لوحيد القرن كي يصول و يجول ويرتع ويمرح ويعيث في حشائش الأجمة فساداً وما أن وصل حمـــار الوحش إلى مربض الأسد حتى حياه مطأطئ الرأس بعد أن عفر وجهه في التراب تأدباً و مخافة و قال له:

- إنمـــا جئـــت إليك يا مولاي الأسد كي أُعلِمك بظهور ملـــوك آخريـــن فـــي هـــذه الغابـــة ،بدأوا يتجرأون ويـــتطاولون علـــى فرض جبروتهم في مملكتك، ألا وهمـــا الـــدود و الســـوس، وقد شرعوا يعيثون في حشائش الأرض فساداً و في أوراق و جذوع الشجر

خـــراباً و اعلم يا مولاي أنهم إنما يأكلون و يتغذون علـــى مـــا يأكلـــه و يقـــتات به الأرانب والزراف، فأنصـــحك بـــأن تأتي عليه و تتخلص منه بأسرع ما تستطيع وإلا لن تجد قريباً ما تقنصه، أو تستطيع أن تلـــتهمه و تأكله، وإنما جئت إليك ناصحاً منبهاً كعبد مُحـــب و صـــديق وفي لا يروم إلا سلامك و تأمين طعـــامك و استمرار تسيّدك على هذه الأجمة إلى ما شاء الله.

نظـــر الأسد إلى حمار الوحش، و عاين كسمه و حجمه و طوله و عرضه، فلما وجد أنه لا بأس به، صحيح معافى، بدأ لعابـــه يتساقط و يسيل و قد غلبته شهوة الإلتهام و الفتك على وجه الإسراع و التعجيل، لكنه ثبت حتى قال:

- إذن. أنـــت تنصـــحني، و تـــتجرأ على المجيء إلى عريني، أما سمعت من يقول : إذن الناصح لا ينصح أحـــداً، و لقد كان الأجدى أن تنصح نفسك، أو تظن أننـــي عن الدود و السوس بغافل، أولا تعلم أن الدود والســـوس إنما وجدا بسببي، وانهما إنما يتقوّتان قبل

كل شيء على فضلتي من الفريسة بعد أن أشبع وأملأ بطني، أو لم تسمع من قال إن بطش الصغار لا يكون إلا مباركة من جبار، و أن الافتراس و القتل والسبطش إما هو عمل متوزع بين أصحابه الصغير منهم يتقوى في كنف الكبير ليزرع الخوف في قلوب أمثالك من الضعفاء العاجزين حتى تكونوا فريسة سهلة و سائغة لنا؟.

ثم أن الأسد هجم على حمار الوحش فافترسه بينما الأرنب و الزرافة يرقبان عن بعد، متحسرين على الحمار وما آل إليه مصيره بينما يقول الأرنب:

- أحمق حمار من لا يعرف طبيعة كل وحش غدار.

مسرحية من فصل واحد و ثلاثة نهايات

"استمع إلى دقات قلبي"

عن بداية و نهاية لنجيب محفوظ



نفيسة و حسنين يقفان بالقرب من سور أحد الجسور النيلية ليلاً، يبدو الظلام شديداً، اللهم إلا من ضوء شحيح يأتي من أحد مصابيح الجسر و يشبّح الأشياء و الكائنات. حسنين يقــف و ظهره للجمهور و يبدو و كأنه يتأمل حركة الماء في النهر بينما تقف نفيسة جامدة في مكانها و قد أطرقت برأسها إلى الأرض.

حســـنين يســـتدير بـــبطء، يقترب. يثبت نظره عليها ويبدو وقد قرّ قراره على أمر ما.

حسنين:

اذن. لقـــد دمرتني تماماً. أنت أجهزت على كل آمالـــي و أحلامــــي. كيف أواجه الناس بعد كل الذي جرى؟. كيف أواجه زملائي؟. في اللحظة التي صورت فيها أنني وصلت القمة، قمة الآمال و الأحــــلام، إذا بك تدفعين بي، و بحركة واحدة منك إلى السفح، لا بل إلى ما تحت السفح .. إلى قاع القاع.

نفيسة:

وهي مازالت مطرقة، جامدة، تنظر إلى الأرض.
افعل ما شئت يا حسنين، لك الحق في كل ما قلته و كل ما سوف تقوله قتلني لو شئت، لا أعرف ماذا أقول لك أكثر من ذلك.

حسنين يضحك بمرارة و غيظ :

القـــتل .. القتل قد لا يكفي .. لو أجد ما هو أشد من القتل لفعلته بك. أنت رسمت النهاية يا نفيسة. موتـــك .. قتلك هو النهاية البديهية. لكن المشكلة أن ذلـــك لـــن يكفينـــي، موتك لن يكون النهاية السعيدة لهذه المهزلة التي أرغمتني عليها، حتى و أنـــت ميتة ستكونين الشيطانة التي عبثت بي وعصفت بحياتي. الغريب أني ما ظننت يوماً أن المصــــائب يمكـــن أن تأتي من ناحيتك .. أنت تحديـــداً يا نفيسة، عموماً الموت أقل شيء يليق بك الآن.

موتــك الآن و بيدي، اختفاؤك من هذه الدنيا، قد يكــون المُخفــف و المُلطف البسيط لكل آلامي والمــرارة التي استشعرها بداخلي. و لكن ماذا بعــد ذلــك لا أدري .. هــل سيحل موتك كل معاناتــي وعذاباتي التي بدأت أعيش فيها بسببك الآن؟.

نفيسة تنظر إليه ببرود، تتأمله طويلاً و هي تبتعد عنه شيئاً فشيئاً :

نعــم الموت يليق بي يا حسنين. اقتلني، سلمني للمــوت، فمــا الفرق بين الموت الآن و الموت الذي عشته بعد موت أبي، لقد كنت ميتة بالفعل، عشــت طوال حياتي ميتة، وجودي كله في هذه الدنــيا كان موتاً مزمناً، ألم أعش طوال الوقت لأجل أن أحيي الآخرين؟. ألم أكن ماكينة النقود التــي لابد منها ليعيش الجميع و يبقون على قيد الحياة؟. أنت .. حسين .. أمك .. حتى حسن ..

حسن الذي لم يكف أبداً عن استدانة النقود مني، كلما اضطرته الظروف.

اقتلني. سلمني للموت، فالموت الآتي سيكون أفضل من موتي الآني.

أشكرك لأنك ستهديني الموت. افعلها الآن وخلصني من فضلك، سيكون ذلك آخر جميل تقدمه لي من بين جمايلك و أفضالك التي لم أرها من قبل أبداً.

حسنين يضحك بسخرية :

هل تظنين أن كلامك هذا سيثنيني عن عزمي؟.

هل استدرارك لشفقتي يجعلني أتراجع؟. لا يا شاطرة. لا تحاولي أن تلعبي هذه اللعبة معي. أنا أعرفك جيداً يا نفيسة.

أعرف قدرتك على امتصاص الأزمات، لكن لن تفلحي هذه المرة، لن تخدعيني أبداً، في الحقيقة أنا أكرهك يا نفيسة، في أعماقي كنت أكرهك دائماً، و طالما قلت لنفسي: لماذا أنت قبيحة

هكـــذا؟! لمـــاذا لم يجد الله عليك بخلقة طيبة و جميلة مثل كثير من الناس؟. لا أعرف لماذا أنت تحديداً أختي دون جميع نساء الأرض.

نفيســـة تـــنظر إليه مذهولة، تتأمله و كأنه كائن لا يمت لها بصلة :

تكرهنـــي يا حسنين؟! أنت تكرهني، أنا التي لم أحـــب أحـــداً في هذا العالم أكثر منك؟! أنا التي كنت أفضلك دوماً على حسين رغم طيبة قلبه و أدبه؟!

أهكـــذا كنت تفكر بي دوماً؟! الأخت الدميمة، آه يـــا الهـــي، مـــا أعظم هذه اللحظات؟! ما أعظم اللحظـــات التـــي تسقط فيها كل الأقنعة و تظهر الحقـــيقة كشمس ساطعة مرة واحدة. فجأة، ولكن إلى الأبد؟! .. آه!.

يقاطعها حسنين بعصبية و قد أحس أنه أخطأ التعبير.

حسنين:

نفيســـة. أرجوك .. لم أقصد ذلك. انس ما قلته، (ثـــم بقـــوة و بقســـوة) ، اســـمعي،لا تغـــيري

الموضوع، نحن الآن لسنا بصدد الحب و الكره، نحن بصدد أمر واحد .. هو ما حدث و ما سوف يحدث الآن ..

تقاطعه نفيسة بدورها و تبدو في قمة الغضب.

نفيسة:

لا يا حسنين .. أياً كان الأمر، هذا هو الموضوع الحقيقي، أموت أو لا أموت ليست هذه المسألة، هناك ما أود أن تسمعه مني قبل أن أموت، سأسمعك ما لم تسمعه أبداً مرة واحدة الآن، وإلى الأبد. أنت إنسان أناني يا حسنين، إنسان فظ، شديد الأنانية، أنت لم تفكر بي يوماً وما فكرت بأمي، أنت لم تفكر إلا في مصالحك، مصالح حسنين و أحلامه و آماله وكيف تتحقق في هذه الدنيا و لوعلى حساب الآخرين، هل فكرت يوماً أن ذلك الكائن الذي ابتليت به كأخت دون سائر الأخوات، و الذي هو أنا، وإنسان يشعر و يحسّ و يفرح و يتألم؟. هل فكرت أن نفيسة التي تقف أمامك الآن هي لحم ودم، لها عواطف و رغبات و جسد يريد ويتمنى، ويتوق

لـــى الحياة؟! هل فكرت مرة واحدة أنني امرأة،
الأنوثـــة فيها كامنة، ومتفجرة ككل نساء الدنيا،
علـــى رغم الفقر و الجوع، والشغل على ماكينة
الخياطة ليل نهار، حتى تصبح أنت دون جوان،
عاشـــق، محب؟! أأقول لك ما هو أكثر يا أخي
العزيز و ...

حسنين يقاطعها بحدة و غضب:

حسنين:

ماذا؟! ماذا تقولين أيتها الفاجرة؟! كيف تجرؤين
على التفوه بهذا الكلام أمامي؟! حقاً، أنت شيطانة
فاجرة و لا رجاء منك أبداً.

نفيســة تحــتد، تبدو غاضبة جداً و حزينة في ذات الوقت، تقاطعه:

نفيسة:

هذا ما تستطيع الرد به، فاجرة، ساقطة. أنت لا
ترغب في التفكير و لو لحظة واحدة فيما قلته لك
الآن، أنت تخاف كلماتي، تخشاها، تخاف أن تجد

الإجابـــات الصحيحة على أسئلتي .. ياه كم أنت مسكين و تستحق الشفقة!.

كـــم هـــم مســـاكين أولئك الذين يخافون الحقيقة ويصمون آذانهم عن سماعها!.

و لكن انظر يا حسنين، تأملني جيداً ..

(تتحســس صـــدرها بـــيديها، و تمررهما على خصـــرها و أردافهـــا في حركة ميوعة، تلمس مؤخـــرتها و أفخاذهـــا فـــي حركات مسرحية) وتواصل:

نفيسة:

انظـــر. إنني أنثى، أنثى مكتملة تماماً، و لها كل مواصفات الأنثى.

يرق صوتها و هي تقترب منه:

نفيسة:

أنا كائن حي يا حسنين. إنسان حقيقي مكتمل، ألا تســـمع أنفاسي؟! اقترب مني. استمع إلى دقات قلبـــي، إنها لن تفترق عن دقات قلبك في شيء،

نفس الصوت، نفس الايقاع .. تك. تك. تك ..
ألا فكرت في ذلك أبداً يا حسنين؟!
ألا فكرت أن نفيسة .. أختك التي طالما شاركتك
ألعابك و لهوك في الصغر، هي الآن إنسانة ..
شابة ناضجة، قادرة على الحب و العشق
و التواصل و الأخذ و المنح .. هه؟!.

يقترب منها حسنين بسرعة، و يبدو كمن جن أو على شفا الجنون، يصفعها على وجهها، و يدفعها بعيداً لتقع على الأرض و هو يقول:

حسنين:

فاجرة، منحطة، مجرمة، وضيعة، أنت شيطان،
شيطان حقيقي يجب تطهير الأرض منه. أحمد
الله أن أبانا مات و لم يعش حتى يراك على هذي
الحال، سأقتلك أيتها الرمة .. الآن و ليكن ما
يكون.

يقـــترب منها و هي ملقاة على الأرض، تستوقفه بحـــركة مـــن يدها، تصرخ فيه و بعنف يجعله يتوقف.

نفيسة:

لا .. لســت شيطاناً يا حسنين، سأثبت لك أنني لســت شــيطاناً، لن أدعك تقتلني حتى لا تدان، وحـــتى لا تدمر حياتك، سأقتل نفسي أنا، سألقي بنفســي فـــي النـــيل، سأجعل هذا الماء يبتلعني ويقـــذف بـــي بعـــيداً .. بعـــيداً عنك إلى أبعد نقطـــة يمكـــن أن تتصورها. سأفعل ذلك و أنا حزينة لأنك لم تفهم كلامي، ويبدو أنك لن تفهمه أبـــداً. على أية حال أنا يائسة من كل شيء، لا أجـــد أملاً في أي شيء. ألم أقل لك أنني عشت طوال حياتي كالميتة؟! و الآن لا فرق عندي بين المـــوت القـــادم و الموت الذي كنت أعيش فيه، سيان الحياة التي أعيشها و سيان الموت عندي. لا تقلـــق يا حسنين بشأني، سيبدو الأمر يا أخي

العزيز و كأنه حادثة انتحار عادية، حادثة انتحار ككـــل الحـــوادث المماثلـــة التي تحدث كل يوم، لأسباب قد تكون مماثلة للسبب الذي يحدث الآن: بشر يئسوا من كل شيء و تساوى لديهم الموت مـــع الحـــياة، و انـــتفى لخط الضعيف الفاصل بينهما، خط الرغبات في التحقق، في أن يكونوا بشـــراً حقيقيـــن لهـــم كـــل الآمـــال و الأحلام والرغبات التي لكل البشر الآخرين.

حسنين يقول في محاولة للمكابرة، و بقسوة واضحة:

حسنين:

لا .. أنـــت لن تفعلين ذلك من أجلي، لا تحاولي إقناعـــي أنـــك ســـوف تموتيـــن من أجلي أنا، فانـــتحارك هو الثمن الذي لابد أن تدفعيه لفعلتك الشـــنيعة، انتحارك لا يعني أنك لست شيطاناً .. أنـــت شـــيطان فاجـــر و نجـــس بـــالفعل وتســـتحقي - لو استطعت - الموت حرقاً حتى تـــتطهر الأرض منك. لا تحاولي خداعي لتبدين

وكــأنك تقدميــن جميلاً لي، أتسدين معروفاً لي عــندما تنتحرين؟! (يضحك بسخرية)، ياالك من داهــية، في الحقيقة ،أنت ترغبين في أن أعيش بعدك بعقدة الذنب، تحاولين أن أعيش مدى الحياة بضــمير يؤلمني ويؤنبني، لا أنس يا نفيسة، لن يكــون ذلــك أبداً، اقتلي نفسك، أو سأقتلك أنا، وفــي الحالتين لن أكون نادماً أبداً .. فانحرافك وضياعك هو ما صنعته يدك .. و ليساعدني الله علــى ســتر فضيحتك، ولحاقك العار بي و بكل أسرتنا.

نفيســة تــنظر إلــيه كالمصــعوقة، تهز رأسها وكأنهــا لا تصــدق ما تسمعه منه، تنهض من الأرض شــيئاً فشــيئاً، حتى تقف و تقترب منه، تواجهه بينما تثبت عينيها في عينيه تماماً، تقول ببرود و هدوء، رغم انفعالها و غضبها:

نفيسة:

خداعــك، تقــول أنني أحاول خداعك، أقول لك سأقتل نفسي، و أنت تقول خداعك. أنت معجون مــن القســوة و العنف يا حسنين، أنت كائن بلا حــس أو شعور، أنت الشيطان الحقيقي يا أخي والله .. انظر إلى تاريخك، سلوكك دوماً .. أليس هو سلوك الانتهازي المحترف، النبتة الشيطانية التــي تــنمو وتكبر دوماً على حساب الآخرين، حــتى موتــي، عدمــي، لا تــراه لا من زاوية مصلحتك، ألا تستطيع التخلي لحظة عن أناك؟! هــذه الأنــا القــذرة المــتورمة التــي تمددت وكــبرت حتى حجبت الناس و العالم عن نظرك وأفقدتــك كل شعور بهم. أأنا أقتل نفسي، أنتحر، فقط كي أجاملك، و أجعلك تشعر بعقدة الذنب؟! قُــل لي من أنت يا حسنين؟. من أنت يا رجل؟. قُــل لي بالله عليك، أنا لا أفهمك أبداً. يقولون أن المرأة غامضة، مخلوق غامض، و [illegible]

بالـــرجل؟. ما بالهم برجل مثلك يا أخي؟! ألست مخلوقاً أشد غموضاً و تعقيداً من أية امرأة على الأرض؟! أنت لا شيء يرضيك، لا شيء يكفيك فـــي هذا العالم، أنت لا ترى الآخرين، لا تراني وحتـــى أنـــا ســـائرة إلـــى موتي إلا من زاوية مصـــالحك فقط، حتى الموت، الموت يا حسنين تـــريد أن تجعله في صالحك؟. لا تريد أن تخسر شيئاً حتى في الموت؟.

ترفع رأسها بثبات و تقول:

نفيسة:

طـــيب .. ســـأقول لك أمراً الآن يا عزيزي، لن أموت يا حسنين، لن أقتل نفسي، هه.

يقترب حسنين منها بسرعة و قد استشاط غضبه، يمســـك بيدها، يحاول إيقاعها على الأرض مرة أخرى، تقاومه، يقترب منها أكثر ليشل حركتها، و يحـــاول الإطباق على عنقها، تقول له بصوت مخنوق:

نفيسة:

إيـــاك أن تفعــل، سأصـــرخ، سألم عليك الناس وأجعـــل فضــيحتك بجلاجل، سأحكي للناس كل شـــيء بالتفصيل، سأجعل من لا يشتري يتفرج عليـــنا يا حسنين، سأقول لهم أنني أردت الانتقام منك و من كل إخوتي عندما ذهبت مع رجل إلى ذلك المنزل سيء السمعة، سأقول لهم أنني أردت فقــط أن فضحك و أضع شرفك في الأرض، لأنــك أنانـــي قاس، ناكر للجميل، لم ترني أبداً، ولـــم تستشـــعر إنســـانيتي فـــي أي لحظة من اللحظات.

يتركها حسنين، يقف متسمراً، و قد ذهل مما قالته، و تقوله، بينما أخذتها نوبة من الانفعال العنيف.

نفيسة تزدرد ريقها و تواصل:

أجل .. سأقول لهم كل شيء، سأقول لهم أنني كنت الأب الحقيقـــي لأسرتنا بعد موت أبينا، سأقول لهم يا حضرة الضابط أنني كنت الضابط الحقيقي لحياة

أسرتنا طوال سنوات طوال حتى اندفعت مراكبها إلى بر الأمان، سأقول لهم أنني كنت الملاح التائه عن وجوده حتى يستمر وجودكم جميعاً، سأقول لهم أني الفتاة البائسة التي لم يتوقف أحد أبداً ليتأملها، يستشعرها، بينما كنت أنت تلهو مع حبيبتك بهية، تلك البيضاء، السمينة، الغبية، التي طالما ذهبت معها إلى السينما لتستمتع بينما كنت أبقى في البيت ككومة من الخرق المنكبة على ماكينة الخياطة، لتحيك خرق كل من هب و دب، حتى تقوست عظام ظهرها لكثرة الانحناء. أجل سأصرخ و أجمع الناس حولي لأقول لهم أنك ما فكرت بي يوماً، ما فكرت يوماً أنه يمكن أن يكون لي رجل يشاركني حياتي مثلما تشاركك فتاتك الحياة. لن أقتل نفسي يا حسنين، و لن تقتلني. لن أسمح لك أو لغيرك بقتلي مرة أخرى أبداً .. أبداً.

تبتعد عنه، تخطو إلى منتصف المسرح بثقة وهي مرفوعة الرأس، بينما يقترب منها حسنين شيئاً فشيئاً و يقول بحزن وإصرار:

حسنين:

إذن .. افعلي ما شئت يا نفيسة، سأقتل نفسي أنا لكي تستريحي .. لا .. لن أجعل يدي تتدنس بقتلك، لن ألوث يدي بجسدك النجس، أنت مصرة على تدميري و لا فائدة.

يخطو خطوات تجاه السور، يمتطي السور، تستشعر نفيسة حركته، تستدير بسرعة و تصرخ فيه:

نفيسة:

حسنين .. حسنين .. انتظر .. انتظر أرجوك. لا يا حسنين، أنا لا أريد تدميرك، لا أريدك أن تموت فأنت أخي، أخي الذي طالما أحببته على رغم كل شيء. لا يا حسنين، عليك أن تكون شجاعاً، إنساناً حقيقياً، هذه فرصتك الآن يا حسنين، فرصتك كي تكون إنساناً قادراً على المواجهة و اتخاذ القرار، لا تكن جباناً يا أخي الحبيب، (تقترب منه و تقول بحسنو): ألا فكرت في أمك؟! ألا فكرت في كل المعاناة التي عانتها أسرتنا، حسين وأنت، و حتى

حسن رغم كل شيء والذي كان أيضاً ضحية ظروفنا وأوضاعنا؟! لماذا أنت خائف هكذا يا عزيزي؟! لماذا أنت خائف من الناس؟!

فكر أيهما سيكون أسوأ: تموت أنت أو أموت أنا؟. أو نواجه المشكلة معاً؟.

نواجهها كأخوة متحابين و متراحمين و متعاطفين مع بعضهم البعض دوماً.

أنت ضحية يا حسنين و أنا أيضاً ضحية، نحن جميعاً ضحايا، فلنرفض مرة السكين التي تسلط على رقابنا، فلنرفض أن نكون ضحايا لما يريده الآخرون، و لنرفض أن يقرروا لنا مصائرنا ويئدوا آمالنا دوماً.

نفيسة:

هيا .. هيا يا أخي .. يا نور عيني، فلنواجه العالم و نفتح صفحة جديدة مع الحياة و نصالحها. قُل أنك لن تتخلى عني أبداً مثلما لن أتخلى عنك. قُل أنك فخور بي لأني ساهمت في تعليمك وجاهدت حتى تعبر أسرتنا إلى بر الأمان. قُل أني حُرمت

من التعليم، لكن جهادي بعد موت أبي يشفع لي كل شيء. فلننظر إلى الدنيا الآن بعين أخرى .. حياتنا تخصـــنا وحدنـــا ونحن الذين نصنعها. قُل ذلك يا أخي، ولننقله معاً لكل الناس.

تقـــترب منه، تسحبه من يده، تسير به ببطء بعيدا عـــن الســـور بينما شمس تشرق شيئاً فشيئاً على وجهـــيهما و صـــوت المـــاء يتصاعد في حركته الأزلية مع التيار.


أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/
دار العين للنشر